سورة يوسف

مكية وهي مع البسملة مئة واثنتا عشرة آية واثنا عشر ركوعًا

إن سورة يوسف مكية عند معظم الصحابة رضي الله عنهم، إلا أن ابن عباس وقتادة يريان أن أربعًا من آياتها الأولى مَدَنية. (القرطبي)

الترابط: أما علاقتها بما قبلها من السور فهي أن الله تعالى قد تحدث في سورة يونس مركِّزًا على جانبين من سنته مع البشر: وهما العقاب والرحمة. ثم فصّل جانب العقاب في سورة هود، والآن – في سورة يوسف – يفصّل جانب الرحمة.

وقد تحدث عن موضوع العقاب قبل موضوع الرحمة لأن أعداء الرسول ﷺ كانوا سيعامَلون بهذا الطريق، حيث نجد أنه عندما حان جزاؤهم عاقَبَهم الله أولاً، ثم شملهم برحمته وغفر لهم في آخر حياة النبي ﷺ.

لما كان الرسول ﷺ أفضل رسل الله وخاتم الأنبياء جميعًا عليهم السلام عامَلَ الله معارضيه في الدنيا كما سيعامل الناس يوم القيامة، حيث سيلقي بالمجرمين في الجحيم أولاً، ثم يخرجهم منها ويدخلهم الجنة في آخر المطاف.

تمتاز هذه السورة عَن أخواتها بأنها تركّز على بيان حادث واحد بيانًا مفصلاً، بينما نجد غيرها من السور تقتبس أجزاء من شتى الأحداث لبيان الموضوع. ويرجع هذا الاختلاف إلى تشابه كبير بين حياة النبي وحياة يوسف عليهما السلام في كل جزئياتها وتفاصيلها. فسرد الله حياة يوسف سردًا تفصيليًا لينبئ بذلك أن الرسول الكريم ﷺ سيمرّ في حياته القادمة بظروف كالتي مرّ بها يوسف عليه السلام.

كما نلاحظ أنه في سورة يونس ذكر الله حادثته كمثال على رحمته، وأما هنا فقد

اختار حادثة يوسف لبيان رحمته الواسعة بيانًا مفصلاً. وهذا يرجع إلى عدة أسباب منها: ما سبق ذكره من أن حادث يونس عليه السلام يبين المماثلة بينه وبين النبي الكريم ﷺ من حيث المصير فقط دون التطرق التفصيلي إلى ما سيقع للنبي قبل ذلك من أحداث، ولكن حادث يوسف عليه السلام لا يوضح المماثلة بينهما في المصير فحسب، بل يبين أيضًا ما سيحصل للنبي ﷺ في الفترة الأولى من بعثته.

والسبب الثاني هو أن حادث يونس يكشف لنا عن التشابه بين الشعبين فيما يتعلق بمصيرهما حيث نُجِّيَ قوم النبي الكريم ﷺ من الهلاك في آخر الأمر مثلما حصل بقوم يونس عليه السلام. ولكن حادث يوسف عليه السلام يكشف عن تشابه آخر أيضًا بين النبيين هو أن أسرة يوسف قد نجوا على يده هو، كذلك تم الإعلان عن العفو العام للكفار يوم فتح مكة بلسان النبي ﷺ. وهذا لم يتيسر ليونس عليه السلام، لأنه لم يعلن بلسانه عن نجاة قومه من الهلاك، وإنما أعلنها الله بنفسه وبفعله هو سبحانه وتعالى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾

التفسير: إن قوله تعالى ﴿الر﴾ يعني فيما يعنيه: أنا الله أرى.

واعلم أن موضوع هذه السورة أيضا يدور حول رؤية الله لأحوال أنبيائه. فقد بين الله بقوله هذا أن أحوال هذا الرسول مشابهة لأحوال يوسف، فإذا كان من غير المستساغ اعتبار يوسف مفتريًا قبل ظهور عاقبة أمره فكيف يُستساغ إذن أن يُرمى محمد ﷺ بالافتراء قبل انكشاف مصيره.

وقد جاء باسم إشارة للبعيد (تِلْكَ) ليشير إلى ما يوجد في هذه السورة من أنباء، والمراد أنكم ترون هذه الأنباء بعيدة أي مستحيلة الوقوع، ولكنها سوف تتحقق حتمًا في يوم من الأيام.

لقد وصف الكتاب بأنه (الْمُبِين) ليعلن أنه كتاب كامل في ذاته حيث إنه غنيٌّ بالأدلة والبراهين الدالة على صدق ما يدّعي به دون الحاجة إلى أدلة من الخارج، وأنه ليس بواضح بيّن في نفسه فحسب، بل إنه يبين أيضًا حقيقة ما ورد في الكتب السابقة من أمور غامضة أو خاطئة.

وقد دحض القرآن الكريم -باستخدام هذه الكلمة- ما كان سيثار ضده في المستقبل من اعتراضات بأنه يتعارض مع ما تذكره الكتب السابقة عن أحداث الماضي. فقد وضح الله هنا بأن تصحيح الأخطاء الواردة في الأسفار الماضية هو من صميم واجب القرآن الكريم، فكيف لا يخالفها في بعض الأمور.

مع الملاحظة أنه قد قال في وصف الكتاب هنا بأنه (الْمُبِين)، بينما وَصَفَه في سورة هود بأن آياته قد ﴿فُصِّلت﴾، ذلك أنه اقتبس في سورة هود اقتباسات مختلفة قصيرة من شتى أحداث الماضي، تدليلاً على صدق الرسول ﷺ، فكانت الكلمة الملائمة لذلك هي (فُصِّلت)، إذ يعني التفصيل جعلَ الشيء فصولاً وأجزاء متمايزة منفصلة. وأما هنا فسَرَدَ حادثًا واحدًا طويلاً، فكان التعبير المناسب لذلك هو (الْمُبِين) الذي فيه معنى الشرح والتفصيل والتوضيح.

كما أشار بكلمة (الْمُبِين) إلى أن القرآن الكريم قد بيّن كل ما يحتاج إليه الإنسان للوصال بالله تعالى من تشريع سماوي وخُلق فاضل واعتقاد سليم وغيرها من الأمور.

إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾

شرح الكلمات:

عَرَبِيًّا: العربيُّ نِسبة إلى العرب، وهو مصدر وصِفة مشبهة من عَرَب يعرَب وعرُب يعرُب عَربًا. وتُطلق الكلمة على الجزيرة العربية وعلى شعبها الأصلي القديم. يقال:

عَرَبَت المعدة عَرَبًا: تغيرت وفسدت. وعَرَبَ الجرح: نُكس وغفر وبقي أثره بعد البرء؛ تورَّم وتقيَّح. وعَرَبَ الرجل: فسدت معدته؛ نَشِطَ؛ فَصُحَ بعد لكنة في لسانه، فهو عَربٌ . وعَرَبَ النهرُ: غَمَرَ. (الأقرب)

فجميع الاشتقاقات من (عرب) تدل على معاني الامتلاء والكثرة، والصفةُ المشبّهة منه هي: عَرَب، والاسم المنسوب منه هو: عَرَبيّ، أي الممتلئ جدًّا، مع العلم أن النسبة أيضا تعطي معنى المبالغة كقولهم (أَحمَريّ) من أحمر، و(عبقريّ) من عَبقَر.

فالمراد من قوله تعالى ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أنه كتاب غنيّ جدًّا بالمعارف والمعاني، لأن الكتاب إنما يمتلئ بالعلوم والمفاهيم. وعندما توصف اللغة بأنها عربية فالمراد أن مفرداتها غزيرة المعاني واسعة المفاهيم.

وعَرُبَ الرجل عَرَبًا: كان عَرَبيًا خالصًا و لم يلحن؛ وعَرُبَ اللسان: تكلم بالعربية وكان عربيًا فصيحًا. (الأقرب). والصفة المشبهة منه عَرَب، وإذا أضفنا إليها ياء النسبة أصبحت (عَرَبيًّا).. أي الذي يكون فصيح الكلام للغاية بريئًا من اللّحن أو اللّكنة تمامًا.

ويتأكد هذا المعنى من مشتقات أخرى للكلمة حيث يقولون: أعرَبَ الشيءَ: أبانَه وأفصَحَه. وأعرَبَ عن حاجته: أبان عنها، وأعرَبَ كلامه: حَسّنَه وأفصَحَ و لم يلحن في الإعراب. وأعرَبَ بحجته: أفصَحَ بها (الأقرب). وقال الراغب: العربيُّ: المفصِحُ، والإعرابُ: البيانُ. (المفردات)

وبناءً على هذا المعنى، فالمراد من قوله تعالى ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أنه كتاب سوف يُقرأ كثيرًا وعلى الدوام، وأن مطالبه واضحة مقرونة بالأدلة والبراهين.

التفسير: لقد ذكر الله هنا ميزتين أُخريين للقرآن الكريم ذكرًا لطيفًا، فقد سمّاه في الآية السابقة (الكتاب)، ليُخبر أنه سوف يُكتَب ويدوّن وسيبقى محفوظًا في صورة كتاب على الدوام. ووَصَفَه في هذه الآية ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾، لينبئ أنه سيُقرأ بكثرة وعلى مر العصور. فهناك أسفار عديدة تُكتب وتُطبع بكثرة، ولكنها لا تُقرأ إلا قليلاً، ومثال

ذلك الإنجيل. ثم هناك كتب لا تطبع بكثرة ولكن تُقرأ كثيرًا، ومثاله "غرنت" وهو كتاب السيخ. ولكن من الضروري لبقاء أي كتاب محفوظًا مصونًا أن يُكتب بكثرة وأن يُقرأ أيضًا بكثرة. وهذه ميزة ينفرد بها القرآن الكريم عن سائر الأسفار السماوية.

أما كلمة (عَرَبِيًّا) فتُستخدم بمعناها العام أيضا، ولكنها -كما أسلفتُ- تدل أصلاً على معنى الامتلاء والكثرة. وإنما تسمى هذه اللغة عربية لأنها كثيرة المفردات واسعة المعاني، بحيث يجد فيها الإنسان بكل سهولة ما يعبّر به عن أي معنى يختلج في قلبه. حتى إن المستشرقين أيضًا اعترفوا بهذه الميزة الفريدة للّغة العربية قائلين بأنها لغة كاملة للغاية مادةً واشتقاقًا. فها هو الكاتب الشهير لين بول Edward W. Lane الذي قام بنقل القاموس "تاج العروس" إلى الإنجليزية يعترف بشعور الحاسد الذي تعتريه الحسرة في مقدمة قاموسه هذا قائلا: "لا نجد للغة العربية نظيرًا بين لغات العالم كلها، فهي زاخرة بمفردات تبلغ مئات الألوف، وما من لفظةٍ فيها إلا وتنطوي على معنى وحكمة".

وقد نقل الأديب الأريب العلامة ابن جِنّيّ قولاً لأستاذه أبي علي: إن الحروف العربية أيضا تحتوي على معانٍ معينة، فمثلا إن الحروف (ك، ل، م) إذا وردت في كلمة ما دلّت على القوة والقدرة دائما، مثل: ملَك وملِك وكَلم ولَكم وغيرها. كذلك فإن المشتقات من (ع ر ب) تدل على الامتلاء والكثرة مثل: الرعب والعبور وغيرهما.

لا شك أن أئمة اللغة القدامى قد لفتوا النظر إلى هذه المزايا للغة العربية، إلا أنه لم يتحدث عن كونها أمّ اللغات كلها إلا سيدنا الإمام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام، فقد أثبت كون اللغات كلها متفرعة من العربية بوضوح وجلاء بحيث لا يسع أحدًا إنكاره (الخزائن الروحانية ج ٩، منن الرحمان). لكن المؤسف هو أنه لم يسعفه العمر لتكميل هذا الكتاب، غير أنه قد ذكر فيه المبادئ الأساسية.

ولقد حاول أحد الناس تقليد حضرته فصنّف كتابًا في هذا الموضوع، ولكنه قد

دَفَن الحقيقة لجهله بها.

ولقد نبّه الله تعالى بقوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ إلى أننا أنزلنا الكتاب بهذه اللغة لكي يسهل عليكم الانتفاع به على أحسن وجه، لأنه إذا لم نترله عربيًا، أي بلغة قادرة على التعبير عن كل مفهوم ومعنىً، لما استطاع الناس الاستفادة منه.

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٤﴾

شرح الكلمات:

نقصّ: قصَّ أثَرَه يَقُصُّ قَصًّا وقَصَصًا: تَتَبّعه شيئًا بعد شيء، ومنه: ﴿فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾.. أي رَجَعَا في الطريق التي سلكاها يقُصّان الأَثَرَ. وقَصَّ عليه الخبر والرؤيا: حدَّث بهما على وجههما، ومنه: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾.. أي نبيّن لك أحسَن البيان. (الأقرب)

التفسير: يبدو من الآية أن الناس كانوا مختلفين في حادث يوسف عليه السلام قبل نزول القرآن الكريم، وإلا لما أعلنَ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾.. أي نحن الذين سوف نكشف الحقيقة، ونحكي الحادث دون زيادة أو نقصان، فنفصل بين المختلفين فيه.

ولكن المستشرقين لم يفكروا في هذا الاختلاف السائد قبل نزول القرآن الكريم ليدركوا أن الحادث كان قد صار عرضةً للاختلاف والتشويه قبل ذلك، مما حدا بهم للطعن في القرآن الكريم عندما وجدوا بيانه مخالفًا لما ورد في التوراة في هذا الصدد. حتى قال المستشرق الألماني (بروكلمان): يكفي لإقناع أي مسلم بفضل التوراة على

القرآن أن يُعرض عليه ما ورد في الكتابين عن حادث يوسف، لأن القرآن قد ذكر هذا الحادث الجميل ذكرًا مشوّهًا مما أفقده روعته وجماله تمامًا. (ملاحظات عن الإسلام ص ١٢٠، نقلاً عن تفسير ويري).

والحق أن المستشرق قد برهَنَ بقوله هذا على صدق القرآن الكريم نفسه، إذ سبق أن أعلن القرآن: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾.. أي نحن الذين سوف نسرد عليك الحادث الحقيقي دون زيادة أو نقصان، مما يعني أنّ الذي أنزل القرآن كان على علم بأنه سيأتي زمان سوف يبسط فيه بعض الجهال ألسنتَهم في بيان القرآن الكريم.

أما قوله بأن القرآن قد ذكر الحادث ذكرًا مشوّهًا ممسوخًا فسوف نرد عليه بعد قليل لدى تفسير الآيات التالية بحيث يتضح للقارئ تمامًا أي المصدرين ارتكب التشويه والمسخ.

واعلم أن قوله تعالى بأننا نحن الذين نسرد لك هذا الحادث سردًا صحيحًا لأننا أوحينا إليك هذا القرآن.. يتضمن نبًا عن وقوع حادث مماثل له في حياة الرسول ﷺ، إذ لا نجد أية علاقة بين نزول القرآن وبين حادث يوسف اللهّم إلا إذا اعتبرناه نبًا عما سيحدث بالرسول الكريم، مما إذا تحقق حدا بالناس أن يصدقوا وحي القرآن وأن يصدقوا حامله محمدًا رسول الله ﷺ.

وهناك سبب آخر لقول الله هذا، وهو أن حامل القرآن لما كان مثيلا ليوسف – عليهما السلام– فكان لزامًا أن يعرف ما مر به مثيله من أحوال وأحداث.

وأما قوله تعالى ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ فله مفهومان: الأول: أنك كنت تجهل هذه القصة، لأن أحداثها لم ترد من قبل مجتمعةً في أي مصدر لا في التوراة ولا في التلمود، وإنما كانت وردت متفرقةً في أماكن شتى.

يقول النصارى معترضين: كيف يقال بأن محمدا كان يجهل الحادث مع أنه مذكور في التوراة (تفسير ويري)؟ والجواب أن بيان التوراة عن الحادث متعارض مع بيان القرآن، فلا شك أن الرسول ما كان يعرف بعض الحقائق التي انفرد القرآن بذكرها، وسوف أبين بعد قليل بالأدلة والبراهين أن بيان القرآن هو الحق والصواب، وأنه ما

من أمرٍ اختلفت فيه التوراة مع القرآن إلا وكانت مخطئة فيه.

والمفهوم الثاني هو: أنك ما كنت تعلم أن هذا سيحدث معك كما لم يكن يوسف يعلم أنه سيحدث معه ما حدث.

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾

شرح الكلمات :

يا أبتِ: أصله يا أبي، أُبدلت ياء المتكلم تاءً بسبب النداء، فيقولون: يا أبتِ ويا أمتِ، تعبيرًا عن الحب الشديد.

التفسير: لقد تعرّض بعض الكتاب المسيحيين للقرآن الكريم بالنقد فيما يتعلق بحادثة يوسف عليه السلام، لذلك سوف أوضح أولاً بأولٍ الفوارقَ بين ما ورد في التوراة وما ورد في القرآن الكريم في هذا الشأن.

الفارق الأول: هو أن التوراة تناولت هذا الحادث بذكر نَسَب يوسف عليه السلام، ولكن القرآن الكريم استهله بذكر الرؤيا التي كانت النقطة المركزية في حياة يوسف ومحورًا لكل ما جرى له من أحداث، دون أن يخوض في ذكر نسبه وغير ذلك مما يخص المؤرخين.

وبغض النظر عن فروق أخرى بين بيان المصدرين فإن هناك بونًا شاسعا بينهما بصدد بيان هذه الحادثة، وإننا لو وضعنا هذا الأمر أمام أي من المعلّقين المحايدين فسوف يحكم لصالح القرآن الكريم نظرًا لبراعة استهلاله للحادث، إذ إن رؤيا يوسف هي التي كانت العامل الأساسي لنجاحه عليه السلام، وهي التي غيرت مجرى حياته تمامًا، وجعلت إخوته أعداءً له، وتحقيقًا لتلك الرؤيا جاء الله بهم إلى مصر وألقى بهم على

قدميه مرغمين. ولو أردنا تعيين ذلك الجانب من حياته الذي كان درسًا وعبرةً للآخرين فلن نجد أي شيء أفضل من رؤياه هذه.

والفارق الثاني بين المصدرين هو أن القرآن الكريم قد قدّم ذكر الأحد عشر كوكبًا على ذكر الشمس والقمر في بيان الرؤيا، ولكن التوراة فعلت العكس، فقد ورد فيها: "فقال إني حلمت حلمًا أيضًا، وإذا الشمس والقمر وأحد عشر كوكبا ساجدة لي. وقصَّه على أبيه وإخوته". (التكوين ٣٧: ٩ و١٠)

وهذا الاختلاف أيضا يكشف فضل القرآن الكريم على التوراة، لأن كليهما متفق على أن المراد من الكواكب إخوته ومن الشمس والقمر أبواه، وأن أول من التقى به وخضع له أدبًا واحترامًا -بعد أن أكرمه الله في مصر- هم إخوته، أما أبواه فقد التحقا به فيما بعد. فالترتيب الذي راعاه القرآن في بيان الرؤيا هو الصواب، وأما الترتيب الذي راعته التوراة فإنه خاطئ ومستغرَب. ولا شك في أن الله تعالى قد أرى يوسف أولاً أولئك الأشخاص من أسرته الذين قُدّر لهم أن يقابلوه أولاً، ثم أراه أولئك الذين قُدّر لهم مقابلته فيما بعد.

أما السجود المذكور في قوله تعالى: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ فإنه لا يعني أنهم سيسجدون له حقيقةً، بل المراد هو أنهم سيصبحون خاضعين وتابعين له. وهذا ما حصل بالضبط إذ حضر إليه في مصر إخوته وأبواه واستوطنوا عنده حيث كان يتقلد منصب الوزارة، وهكذا أصبح هؤلاء الناس تابعين له يعيشون تحت لوائه.

وقد ورد في تفسير "روح المعاني" بأن طاعة الوالدين والإخوة ليوسف ليس بأمر ذي بالٍ فلذا علينا أن نعبّرَ الشمس بالملك والقمر بالوزير والكواكب بعليّة القوم.

ولكن هذا المعنى باطلٌ، لأن ملك مصر لم يكن تابعًا ليوسف بل كان يوسف خاضعا لقوانين بلده كما صرح بذلك القرآن في قوله تعالى:﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ (الآية: ٧٧).. أي ما كان ليوسف أن يحتجز أخاه عنده وفق القانون الملكي.

ثم إن الملك مهما كان احترامه لوزيرٍ من وزرائه كبيرًا فلا يمكن أن يعبَّر عن

تقديره له بكلمة السجود، لأنه لا يحترمه عن طاعة وخضوع وإنما عطفًا ولطفًا منه.

وحيث إن السجود المادي تمثيلٌ لكمال الطاعة لذلك لن يطلَق السجود هنا ولو مجازًا إلا على صور مختلفة للطاعة. والواقع أن طاعة الأبوين والإخوة أمرٌ عظيم أيضًا، لأن الآباء لا يكونون عمومًا طائعين للأولاد. ولكن الأمر في حادثة يوسف عجيب جدًا. لقد أخبره الله بالرؤيا وهو صغير أنه سيأتي يوم يدخل فيه أبواه في طاعته. مع العلم أن يوسف كان يبلغ حينئذٍ أحد أو اثني عشر عامًا، وكان أبوه قد تجاوز الخمسين. ومن ذا الذي يستطيع أن يضمن -طول هذه المدة- أنه سيعيش ويحقق رقيًا، وأن أبويه وإخوته الأحد عشر سيبقون أيضًا أحياء ويصبحون طائعين له طول هذه الفترة. إذًا فتحقُّق الرؤيا في هذه الظروف ليس بأمر عادي أبدًا.

لقد أخبرتُ من قبل في تأويل ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ أن المراد منها أحد عشر أخًا ليوسف. وقد ذكرت التوراة أسماءهم كما يلي: رأُوبين، شمعون، لاوي، يهوذا، يسَّاكر، زبولون، بنيامين، دان، نفتالي، جاد وأشير. (التكوين ٢٩ و٣٠ و٣٥) هذا، وقد ذكرت التوراة معاني غريبة لهذه الأسماء التي أطلقتها عليهم أمهاتهم إلا بنيامين.

المماثلة الأولى: بين النبي الكريم ﷺ ويوسف عليه السلام، وهي في كيفية نزول الوحي الأول. فكما حدث ليوسف كذلك نزل أول وحي على النبي ﷺ وهو في "غار حراء"، وقد حمل هذا الوحي أنباءً تخبره بأنه سوف يفوق ويتغلب عليهم جميعًا إذ قال الله له ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق:٤-٦). أي اقرأْ هذا الكلام الذي أنزله عليك أكرمُ مَن في الوجود، بمعنى أن الله الأكرم سوف يجعلك أنت أيضا أكرم مخلوق في الأرض، وسوف يعلّمهم بواسطتك ما لم يعلّمه أحدًا من الأولين.. بمعنى أنك سوف تصبح أشرف كائن في الأولين وفي الآخرين، لأنك سوف تُعطى ما لم يعطَ الأنبياء الأولون. وكأنه تعالى

يقول للرسول: ستكون سيدًا لإخوتك.. أي لقومك وكذلك لآبائك الروحانيين أي الأنبياء السابقين، وذلك كما قال النبي ﷺ: "أنا سيدُ وُلْدِ آدم" (ابن ماجة، الزهد)، وأعلن: "لو كان موسى وعيسى حيَّين لما وَسِعهما إلا اتّباعي" (ابن كثير، الآية: وإذ أخذ الله ميثاق النبيين).

وبالاختصار لقد أُخبر النبي ﷺ لدى أول وحي تلقاه أنه سوف يصير سيدًا مطاعًا لإخوته ولآبائه القدامى.

المماثلة الثانية: لقد حكى يوسف رؤياه لأبيه عليهما السلام، كذلك ذكر النبي ﷺ بمشورة من زوجته رضي الله عنها حادثَ بدء نزول الوحي لِشخص صالح من أسرتها هو ورقة بن نوفل (البخاري، بدء الوحي).

قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦﴾

شرح الكلمات:

يا بُنيّ: كلمة (بُنيّ) تصغير من (ابني). ولا يُقصد بالتصغير الإشارة إلى ولد صغير السن وإنما يقصد به التعبير عن شدة الحب. وهذه الكلمة تُستخدم لكبار الأولاد أيضًا، لأن الولد مهما كبر فهو يبقى صغيرًا بالنسبة إلى أبيه ويستحق عطفه ومحبته. فقد ورد في القرآن الكريم قول نوح عليه السلام لابنه عند الطوفان: ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا﴾ (هود:٤٣)، وقول لقمان عليه السلام لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ (لقمان: ١٤).

فيكيدوا: كاده يكيد كَيْدا: خدعه ومكر به، والاسم المكيدة؛ وعلَّمَه الكيدَ، وبه فُسِّر ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ أي علّمناه الكيد على إخوته. وكاد له: احتال عليه.

وكاد فلانًا: حاربه؛ أراده بسوءٍ. والكيدُ: المكرُ والخبثُ؛ الحيلةُ؛ الحربُ؛ إرادةٌ مضرّةٌ غير خفية. وهو من الخَلق الحيلةُ السيئة، ومن الله التدبيرُ بالحق لمجازاة أعمال الخلق (الأقرب).

التفسير: هنا أيضا نجد اختلافًا بين بيان المصدرين، فالقرآن يصرّح أن يوسف عليه السلام قد قصَّ رؤياه على والده أولاً، فنهاه أن يقُصّها على إخوته قائلاً: ﴿لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ﴾، ولكنّ التوراة تقول بأنه قصّها على إخوته قبل أبيه. (التكوين ٣٧: ٩).

وبيان القرآن هو الحق والصواب كما تشهد بذلك التوراة نفسها إذ ورد فيها أن يوسف كان قد رأى رؤيا أخرى قبل هذه ورواها لإخوته فبدءوا يبغضونه حيث قيل: "وحلم يوسف حُلمًا وأخبر إخوته. فازدادوا أيضًا بغضًا له" (التكوين ٣٧: ٥). وورد فيها أيضا (فقال له إخوته لعلك تملك علينا مُلكًا أم أن تتسلط علينا تسلطًا. وازدادوا أيضًا بغضًا له من أجل أحلامه ومن أجل كلامه). (التكوين ٣٧: ٨)

فهل يُعقل بعد ظهور هذه الكراهية من إخوته أن يحكيَ لهم يوسف رؤياه الثانية التي كانت مشابهة لرؤياه الأولى في فحواها قبل أن يحكيها لأبيه؟ كلا بل إن المنطق السليم يفرض أن يخفي رؤياه الثانية عن إخوته لما رآه منهم في المرة الأولى، وأن يحكيها لأبيه. فبيان القرآن الكريم أقرب إلى العقل والصواب وذلك بشهادة التوراة نفسها.

وأما قول يعقوب عليه السلام لابنه ﴿لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ﴾ فقد ذكر القرآن الكريم نفسه سبب هذا النّهي حيث قال:﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾ يعني أنهم سوف يدركون بذلك أن لك مستقبلاً باهرًا، فيحسدونك ويبغضونك، ناسين أن لا خيار للإنسان في شأن الرؤيا، وسيحاولون القضاء عليك. وهذا ما تؤكده التوراة أيضًا بأنهم كانوا ناقمين عليه نتيجة أحلامه ورؤاه.

المماثلة الثالثة: وهي كما أن يوسف عندما قصّ رؤياه على أبيه يعقوب عليهما

السلام أنذره بأنه سيواجه عداءً من قِبل إخوته، كذلك لمّا قصّ النبي ﷺ حادث الوحي الأول على ورقة بن نوفل أخبره قائلاً: "يا ليتني فيها جَذَعًا، ليتني أكون حيًا إذ يخرجك قومك".. أي ليتني كنت شابًا قويًا أساعدك. وحينما سأله النبي ﷺ في حيرة: "أوَ مُخرِجِيَّ هُمْ".. أي هل قومي حقًّا سيطردونني من بلدي؟ أجابه ورقة: "لم يأتِ رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودِيَ." (البخاري، الوحي)

وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧﴾

التفسير: أي سوف يعاملك الله تعالى تمامًا كما رأيت في الرؤيا، وسوف يعطيك ما وعدك به من حظوة واصطفاء.

وأما قوله تعالى ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ فله مفهومان؛ الأول: سوف يحقق الله تعالى لك ما رأيت في الرؤيا من بشارة. والثاني: سوف يهب لك مَلَكَةً تعرف بها تأويل الرؤيا.

أما قوله تعالى ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ فالمراد من إتمام النعمة هو التشريف بالنبوة، فبشره الله بذلك أنه سوف يهب له أيضًا النبوة وهكذا يكرم آل يعقوب؛ بمعنى أنهم سوف ينالون نصيبًا من النبوة بالإيمان بيوسف.

هنا أيضًا يختلف القرآن مع التوراة، فإنه يقول: إن يعقوب فرح برؤيا ابنه وأيقن بصدقها وصحتها. ولكن التوراة تقول إنه زجره على رؤياه، حيث جاء فيها: "فانتهره أبوه وقال له ما هذا الحلم الذي حلمت، هل نأتي أنا وأمك وإخوتك لنسجد لك إلى

الأرض. فحسده إخوته. وأما أبوه فحفظ الأمر" (التكوين٣٧: ١٠ و١١).

ولا جرم أن بيان التوراة مخالف للعقل، لأن أي إنسان ذي عقل سليم لا يزجر أحدا على ما يراه في المنام، لأن الحلم أو الرؤيا ليس في خيار أحد. نعم، يمكن أن يزجر الإنسان أحدًا إذا كان يظن أن الشخص كاذب و لم يرَ أيّة رؤيا، ولكن التوراة تقول بأن يعقوب زجره قائلاً: ما هذه الرؤيا التي رأيت، مما يعني أنه يعتبره كاذبًا. إذنْ فادعاؤها بأن أباه زجره على الرؤيا أمر غير منطقي، وكل عاقل سوف يصدق القرآن في بيانه حتمًا.

ثم إن التوراة نفسها تعارض بيانها هذا، إذ تضيف أن يعقوب حفظ هذه الرؤيا. والبديهي أنه حفظها لأنه أيقن بأنها من الله الرحمن. إذن فمن المستحيل أن يزجره على سماعها، خاصةً وأن الابن كان لا يملك أي خيار في أن يراها أو لا يراها.

المماثلة الرابعة: يتضح من هذه الآية أن يعقوب عليه السلام أيقن أن ما رآه ابنه كان رؤيا رحمانية وآمن بها واعتبرها شرفًا ومكرمة لشعبه، وهذا ما حدث للنبي ﷺ حيث صدّقه ورقة بن نوفل عند سماع حادث الوحي الأول واعتبره مدعاة عزٍ وشرف لقومه قائلا: "هذا الناموس (أي الوحي) الذي نزّل الله على موسى" (البخاري،الوحي).

لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴿٧﴾

التفسير: أي أن في هذا الحادث آياتٍ للذين يسعون لفهم صدق النبي ﷺ. وكأنه تعالى ينبئ هنا أن هذا الرسول أيضا سوف يتعرض لما مرّ به يوسف عليه السلام من ظروف ومحن. فالآية دليل واضح على أن القرآن لا يحكي حادث يوسف كقصة تاريخية، وإنما يسرده ليزوّد الباحثين عن صدق محمد رسول الله ﷺ بالبراهين الدالة على صدقه.

إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩﴾

شرح الكلمات:

عُصبَة: العصبة من الرجال والخيل والطير العصابةُ، والعصابةُ: الجماعةُ أي المجموعة؛ وقيل: العشرةُ؛ وقيل ما بين العشرة إلى الأربعين. (الأقرب)

وقد فضّل المفسرون معنى العشرة لأن إخوة يوسف المعادين له كانوا عشرة. والعصبة تدل على القوة أيضا لأنها مشتقة من العصب، وكأنهم قالوا نحن الذين نكدح ونكسب للأسرة فلماذا يؤثر أبونا يوسف وأخاه علينا.

التفسير:

المماثلة الخامسة: لقد واجه النبي ﷺ نفس الموقف في عدة أشكال، فمثلا كان لعمر رضي الله عنه عمّ اسمه زيد بن عمر بن نفيل، وكان قد تعلّم التوحيد من علماء اليهود، وكان يقوم بالوعظ ضد الوثنيين. وعندما سُئِل عن دعوى النبي ﷺ قال: أنا الذي كنت أحارب الشرك في مواعظي وخطبي، فكنت أنا أحق بالنبوة (البخاري، المناقب؛ والسيرة لابن هشام).

وقد أثار اليهود والنصارى نفس هذا الاعتراض ضد النبي ﷺ إذ زعموا أنهم حملة دين الله وأحقُّ بنعمة النبوة. بل يتبين من القرآن الكريم أن الفكرة نفسها كانت تختمر في أذهان مشركي مكة أيضًا. يقول القرآن: ﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (الزخرف:٣٢). أي لماذا لم يترله الله على زعيم من زعماء مكة أو الطائف. وكأنهم احترقوا غيظًا وحسدًا إذ كيف أن الله اختار هذا الشخص الضعيف من بيننا لهذا الفضل والشرف؟ فردّ الله عليهم بقوله ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ﴾ (الزخرف:٣٣).

وقولهم ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ يعني: أنه من واجب أبينا أن يحبنا نحن لما نقوم به من جهود وأعمال من أجل الأسرة ولكنه يحنو على يوسف الذي لا يحرك ساكنًا، وهذا من أبينا خطأٌ كبير. وقولهم هذا يدل على أنهم كانوا ناقمين عليه غاية النقمة.

اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿١٠﴾

شرح الكلمات:

الصالحين: صلح الشيء يصلح صلاحًا وصلوحًا وصلاحيةً: ضدُّ فَسَدَ أو زال عنه الفسادُ، يقال صلحت حال فلان. وصلح الرجل في عمله: لزم الصلاح. (الأقرب)

التفسير: انظروا إلى تأثير الصحبة الصالحة. لقد كان إخوته يخططون لارتكاب جريمة شنيعة، ولكنهم كانوا أبناء لنبي من الأنبياء وكان لصحبته تأثير فيهم لذلك كانوا يشعرون في قرارة نفوسهم بالخوف من غشيان المعصية، ودفعًا لهذا الخوف خدعوا أنفسهم قائلين: هلمّوا نقتله الآن وسوف نتوب فيما بعد.

هناك كثير من الناس الذين يقعون فريسةً لهذه الخدعة الشيطانية، مع أنه لا ضمان للحياة. ومهما كان الإنسان صادقًا وقويًا في نيته للتوبة فإنه ليس في مأمن من أنواع الأخطار والأخطاء أبدًا. إذ قد يفاجئه الموت، أو يصاب في عقله، أو يتعود على المعصية بحيث يستحيل التخلي عنها. فما دام الأمر كذلك كيف يضمن توبته في آخر المطاف.

وهنا أيضًا نجد اختلافًا بين التوراة والقرآن، إذ يقول القرآن إن إخوته تشاوروا أولا، وبعد المشورة احتالوا على أبيهم ليأخذوه معهم خارج البيت وينتقموا منه.

ولكن التوراة تزعم أنهم كانوا خارج البيت ورأوه وهو قادم إليهم، فاستعدوا فورًا لقتله حيث جاء فيها: "فلما أبصروه من بعيد قبل ما اقترب إليهم احتالوا له ليُميتوه. فقال بعضهم لبعض هو ذا هذا صاحب الأحلام قادمٌ. فالآن هلمّ نقتله ونطرحه في إحدى الآبار ونقول: وحش رديء أكله. فنرى ماذا تكون أحلامه". (التكوين٣٧: ١٨-٢٠).

إنه من السهل جدًا للذين يقومون بتحرِّي أسباب الجرائم أن يدركوا أن قول القرآن هو الصواب، إذ لا يفكر أحد ولا يستعد على هذا النحو فجأةً لقتل شخص ما إلا المجانين أو قطاع الطرق الذين قد تعودوا على سفك الدماء وإزهاق النفوس بدون هوادة. ولكن إخوته كانوا يعيشون في ذلك البيت عيشة الشرفاء فما كانوا ليستعدوا هكذا فجأةً لقتله. إذًا فاتّفاقهم جميعًا على قتله، دليل على أنهم كانوا قد تشاوروا وتآمروا على قتله من قبل. أفلم يفكر أخوه الذي اقترح عليهم قتله ماذا سيكون مصيره إذا لم يرضَ باقي الإخوة باقتراحه؟

كما أن قولهم ﴿وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ أيضًا يكشف أنهم ما كانوا مجرمين بالعادة، بل كانت فطرتهم تعافُ هذه الفعلة الشنيعة. فلا شك أن رواية القرآن أقرب إلى الصواب عقلاً وواقعًا.

المماثلة السادسة: وهي تتمثل في مؤامرة القتل. يقول الله تعالى عن تآمر الكفار على قتل النبي ﷺ ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (الأنفال:٣١). قوله ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ يعني ليأسروك ويقيدوك. فكما أن أخوة يوسف عليه السلام خططوا لقتله أو إلقائه في أرض نائية، كذلك كان تخطيط المشركين ضد المصطفى ﷺ.

قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١١﴾

شرح الكلمات:

غَيابَة: الغَيابة من كل شيء: ما سَتَرَك منه. والغيابة من الجُبّ و الوادي: قعرُه. ووقعنا في غيابة أي هبطةٍ من الأرض. والغَيابة: القبر. (الأقرب)

الجُبُّ: البئرُ، أو البئرُ الكثيرة الماء البعيدة القعر. وفي المصباح: الجب بئر لم تُطوَ (الأقرب).

السيّارة: مؤنث السيّار أي كثير السير. والسيارة: القافلة، وأصلها القوم يسيرون. (الأقرب)

التفسير: أي إذا كنتم لا ترضون إلا بمخالفته في كل حال فلا تقتلوه؛ بل فكروا في مكيدة أخرى نطرده بها من البيت.

المماثلة السابعة: كما أن بعض إخوته عارضوا قتله كذلك خالف بعضٌ من الكفار المتآمرين قتلَ النبي ﷺ، بل إن بعضهم ضغطوا على الآخرين بحيث اضطر هؤلاء أخيرًا لنقض المعاهدة التي أبرموها لقتله ﷺ وأتباعِه عن طريق التجويع والفاقة (السيرة لابن هشام).

قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴿١٢﴾

شرح الكلمات:

لا تَأْمَنّا: أمِنه وأمّنه وائتمنه واستأمنه: جعله أمينًا (تاج العروس).

ناصحون: نصح الشيءُ نَصحًا ونُصوحًا: خَلَصَ. ونصحتْ توبته نصوحًا: خلصت من شوائب العزم على الرجوع. ونصح الثوبَ: أنعم خياطته و لم يترك فتقًا ولا خلالاً، شبه ذلك بالنصحِ. ونصح العملَ: أخلصه، ونَصح العسل: صفّاه. (الأقرب)

التفسير: ورد في التوراة: "ومضى إخوته ليرعوا غنم أبيهم عند شكيم. فقال إسرائيل ليوسف أليس إخوتك يرعون عند شكيم. فتعال فأُرسلك إليهم. فقال له ها أنذا" (التكوين ٣٧ : ١٢ و١٣).. أي أن أباه هو الذي حضّه على الذهاب إلى إخوته في المرعى.

ولكن القرآن الكريم يخبرنا أن إخوته تآمروا على قتله، ثم استأذنوا أباهم ليرسله معهم إلى الخارج. وكان يعقوب عليه السلام على علمٍ بسيرة أبنائه السيئة وبما كانوا يكنونه ضد يوسف من عداء وشر. والتوراة أيضا تؤكد ذلك: " فلمّا رأى إخوته أن أباهم أحبه أكثر من جميع إخوته أبغضوه و لم يستطيعوا أن يكلموه بسلامٍ" (التكوين ٣٧:٤). فكان من المستحيل -والحال هذه- أن يرسله أبوه بنفسه إلى الإخوة. فلا شك إذًا في صحة بيان القرآن وخطأ بيان التوراة.

ويبدو من المشهد الذي ترسمه هذه الآية أن يوسف عليه السلام كان عندئذٍ قد بلغ من العمر حوالي أحد عشر عامًا أو اثني عَشَرَ، لأن ما قاله إخوته لا يقال إلا عن طفل في هذه السن. ولكن التوراة تزعم أنه كان قد بلغ سبع عشرةَ سنةً (التكوين ٢:٣٧). وهذا خطأٌ كما سنثبت ذلك بعد قليل.

أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٣﴾

شرح الكلمات:

يرتع: رتعت الماشية في المكان رَتعًا ورُتوعًا ورِتاعًا: أكلت وشربت ما شاءت في خِصبٍ وسَعةٍ. ورتع القوم: أكلوا ما شاءوا في رغدٍ، ويقال: خرجنا نرتع ونلعب أي ننعم ونلهو. (الأقرب)

التفسير: يبدو من هذه الآية أنهم كانوا حرّاثين أيضًا، ولكن التوراة تزعم أنهم كانوا رعاة. والحق أن بيان القرآن هو الحق والصواب، وهذا ما يتأكد من التوراة نفسها، إذ تذكر الرؤيا الأولى الواردة في التوراة أن يوسف رأى فيها أنه وإخوته يصنعون حُزمًا من الكلأ (التكوين ٢:٣٧). ولكن الطفل الصغير الذي لم يُسمح له بالخروج من البيت إلا قليلا و لم يعِش في المدينة وإنما في البرية مع أهله منقطعًا عن باقي العالم، لا يمكن أن يرى في الرؤيا مشهدًا كهذا لا عهد له به من قبل في الحياة. فالرؤيا الأولى أيضًا تؤكد صحة بيان القرآن بأنهم كانوا حرّاثين أيضًا.

وفي قولهم ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ دليل آخر على أن يوسف كان صغير السن عندئذ، وإلا فإن الشاب المترعرع في البرية والبالغ سبع عشرة سنة، لا يكون بحاجة إلى حماية الآخرين على هذا النحو.

قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٤﴾

التفسير: قال يعقوب بأن مجرد التفكير في خروجه معكم يؤلمني، لأني أخاف أن يأكله ذئب وأنتم في غفلة عنه. وقوله هذا يشكل دليلا آخر على كون يوسف عليه السلام حينئذ صغير السن. كما يبدو منه أيضا أن أباه كان قد تلقى بوحي الله إشارات تنبهه

إلى مؤامرتهم هذه، ولذلك امتنع عن إرساله معهم بنفس الحجة التي كان إخوته سيلجئون إليها في ما بعد تبريرًا لغيابه.

قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿١٥﴾

التفسير: علينا أن نأخذ العبرة من هذه الحادثة وندرك كيف أن الحسد يلقي صاحبه بعيدًا في الضلال. ذلك أنه إذا كان إخوته الآخرون لم يجدوا أي رادع يمنعهم من نسج هذه المؤامرة الشنيعة ضده كان من واجب "دان" و"نفتالي" على الأقل أن يُظهرا من الحياء ما يمنعهما من التورط في المؤامرة، لكونهما من بطن زوجة يعقوب التي كانت أمَةً لأم يوسف. ذلك أن أمه كانت لا تستطيع الإنجاب في البداية فأهدت هذه الأَمةَ لزوجها يعقوب ليكون له أولاد منها. فولدت له ولدين فاعتبرتهما أم يوسف أولادًا لها وقامت هي بتربيتهما، أحدهما "دان" ومعناه (لقد رُزقتُ أنا أيضًا ولدًا) والآخر نفتالي (أي لقد صرت غالبة على أختي بولدي هذا) وتولت تربيتهما بنفسها (التكوين ٣٠: ١-١٠). ولكن انظروا إلى قسوة قلب داني ونفتالي كيف اشتركا في مؤامرة قتل ابن امرأة كانت محسنة لهما.

فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ وَأَجْمَعُواْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴿١٦﴾

التفسير: أي أنهم لا يدركون اليوم مقام من يسيئون إليه، ولكن الأمر سينكشف

عليهم بكل جلاء، عندما يضطرون للمثول بين يديه. وكأن الآية وصفٌ لما كان عليه يوسف عليه السلام عندئذ من حالة ضعف وانعدام حيلة بحيث لم يخطر ببال إخوته حينئذ أنه يمكن أن ينال هذا الشرف العظيم.

المماثلة الثامنة: إن إلقاء يوسف عليه السلام في البئر يشكل أيضا تشابهًا آخر بينه وبين النبي ﷺ. فعندما اضطر نبينا للهجرة نتيجة مضايقات الكفار بمكة، وطاردوه اختبأ في "غار ثور" وهو أيضًا شبيهٌ بالبئر. والفارق الوحيد هو أن يوسف أُلقي في البئر بيد إخوته، أما النبي ﷺ فاختبأ بنفسه في الغار (السيرة لابن هشام).

وقد تشبه حادثة إلقائه في البئر ما حدث للنبي ﷺ في شعب أبي طالب حيث أُلقي في ذلك الشعب ليبقى فيه محاصرًا لحوالي ثلاث سنوات.

المماثلة التاسعة: لقد أُخبر يوسف عليه السلام بمصير إخوته قبل وقوعه، كذلك بشّر الله جل جلاله النبي ﷺ بأن إخوته (أي قومه) سوف يضطرون للمثول أمامه أذلاء صاغرين في يوم من الأيام. وهذه البشارة مذكورة في قول الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ (القصص:٨٦).. أي أن الإله الذي أنزل عليك القرآن للعمل به سوف يعود بك حتمًا إلى البلد التي هي مرجع الخلائق ومعاد الناس، بمعنى أنك سوف ترجع إليها فاتحًا بعد أن طُردت منها.

وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاء يَبْكُونَ ﴿١٧﴾ قَالُواْ يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٨﴾

شرح الكلمات:

عِشاءً: العشاء أولُّ الظلام، وقيل من المغرب إلى العتمة، وقيل من زوال الشمس إلى طلوع الفجر. (الأقرب)

التفسير: قولهم ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ يشكل برهانا آخر على أن يوسف عليه السلام كان صغيرًا عندئذ، لأن شابًا في سن السابعة أو الثامنة عشرة يستطيع الاشتراك في أية لعبة شاء. كما أن الذئب الواحد لا يهاجم شابًا بيده سلاح، اللهم إلا أن يكون هناك قطيع من الذئاب، ولكن لا توجد في أرض فلسطين منطقة فيها الذئاب على شكل قطعان.

وقولهم ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ يبين أنهم ما كانوا مجرمين متعودين على ارتكاب الجرائم، وإلا لم يتفوهوا بهذه الكلمة التي هتكت سرّهم، لأن المجرمين بطبيعتهم لا يكشفون عن جرائمهم بمثل هذه الكلمات، أما هؤلاء فقد تفوهوا -رغمًا عنهم- بكلمةٍ كشفت عن جريمتهم.

وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٩﴾

شرح الكلمات:

سوّلت: سوّل له الشيطان: أغواه وسهّل له، من السَوَل أي الاسترخاء. يقال هذا من تسويلات الشياطين وما تطلبه وتسأله. سولت له نفسه كذا: زيّنته له وسهّلته له وهوّنته (الأقرب).

فقوله (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ) تقديره: فصبري صبر جميل، أو: فأمري صبر جميل، أو: فصبر

جميل خير لي.

المستعان: استعان: طلب العون، والمُستعان من يُطلب منه العون.

التفسير: يتضح من التوراة أن يعقوب عندما رأى قميص يوسف عليه السلام أيقن بموته حيث جاء فيها:" فتحققه وقال: قميص ابني. وحش رديءٌ أكله. افتُرس يوسف افتراسًا" (التكوين٣٧: ٣٣). ولكن القرآن الكريم يعارض هذا الرأي ويقول: إن أباه اعتبر قضية قميصه خدعةً منهم واستعان بالله على ما يقولون، مما يؤكد أنه كان يأمل أن يكون يوسف حيًا، وإلا فلا معنى لقوله ﴿وَاللّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾.

والحق أن التوراة نفسها تؤيد موقف القرآن، حيث جاء في موضع آخر منها أن يوسف عليه السلام عندما أوقف أخاه عنده في مصر، تقدم إليه يهوذا وقال: "قال لنا عبدك أبي: أنتم تعلمون أن امرأتي ولدت لي اثنين. فخرج الواحد من عندي وقلت: إنما هو قد افتُرس افتراسًا. و لم أنظره إلى الآن." (التكوين ٤٤ : ٢٧- ٢٨)

فيتضح من قول يعقوب عليه السلام: "و لم أنظره إلى الآن" أنه كان يوقن بأن يوسف لا يزال حيًا، ولو كان موقنًا بموته -كما تذكر التوراة هنا بأنه افتُرس- لصار قوله هذا: "لم أنظره" عبثًا ولغوًا. إذن لا شك في صحة بيان القرآن الكريم.

وإن التلمود أيضًا يساند رأي القرآن، فقد جاء فيه أن يعقوب عندما رفض ادعاءهم ذهبوا وأتوه بذئب، فقال له الذئب:"كيف آكل ابنك وقد فقدتُ اليوم ابني أنا". ثم تذكر الرواية أن يعقوب لم يزل متفائلاً إلى أن أخبره الله بالرؤيا أن ابنه لا يزال حيًا يرزق (الموسوعة اليهودية، كلمة Joseph).

وهذا البيان من التلمود مهما كان مخالفًا للعقل فإننا عندما نقرأه مع قول يهوذا السالف الذكر ندرك دونما شك أن يعقوب لم يثق بادعائهم هلاك يوسف بين أنياب الذئب.

المماثلة العاشرة: فكما أن إخوة يوسف قد ادّعوا هلاكه كذبًا كذلك زعم الكفار قتل الرسول ﷺ في موقعة أُحد عندما أعلن أبو سفيان: إنا قتلنا محمدًا. حتى إنهم

نشروا هذه الإشاعة في مكة (السيرة لابن هشام). لكن الفرق الوحيد هو أن إخوة يوسف عزوا قتله إلى الذئب، وأما هؤلاء فقد ادعوا قتله ﷺ بأيديهم.

وَجَاءتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾

شرح الكلمات :

واردهم: الوارد: الذي يتقدم إلى الماء، أو الذي يتقدم القوم فيستقر لهم. قوله تعالى ﴿أَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ﴾ أي ساقيهم (المفردات). الواردة جمعُ الوارد وهم القوم الذين يردون الماء. (الأقرب)

يا بشرى: كلمة للتعجب والتعظيم والفرحة. مثل يا ويلتى ويا حسرتى التي يعبَّر بها عن الأسف.

البضاعة: طائفة من المال تعَدُّ للتجارة. (الأقرب)

التفسير: انظروا كيف يعامل الله عباده بكل وفاء. لقد ألقى هؤلاء يوسف في البئر عند البرية، ولكن الله تعالى جاء لنجدته على الفور حيث مرَّ ركب من هناك، فبعثوا ساقيهم طلبًا للماء، فجاء الله به إلى البئر نفسها التي أُلقي فيها يوسف عليه السلام.

ويبدو من قوله تعالى ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً﴾ أنهم رأوا في يوسف إمارات النبل والسُؤدد فلذا اعتبروه متاعًا غاليًا.

وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢١﴾

التفسير: عندما عرف إخوته أن أصحاب القافلة قد أخرجوه من البئر جاءوهم وقالوا لهم إنه عبد لنا قد أبق، وباعوه لهم.

التوراة تقول إن إخوته باعوه بعشرين درهمًا (التكوين ٣٧: ٢٨). وبيَّن القرآن أنهم لم يبيعوه لأهل الركب رغبةً في المال وإنما ليتظاهروا أنه مملوك لهم.

يبدو أن إخوته خافوا أنهم إذا لم يتدخلوا في تحريره منهم لربما يساورهم الشك في أمره وربما يوصلونه إلى البيت مرة أخرى، فتَظَاهَروا لهم أن يوسف عبد لهم لا يصلح لشيء ويريدون التخلص منه بأي ثمن.

والشراء يعني الاشتراء أيضًا، وعليه فقد يرجع ضمير الجمع في (شَرَوه) إلى أهل القافلة.. أي أنهم اشتروه من إخوته بدراهم معدودة.

وهنا أيضًا تختلف التوراة عن القرآن إذ تزعم أن إخوته هم الذين أخرجوه من البئر حيث تقول بأنهم بعد إلقائه فيها جلسوا يأكلون، فلاحت لهم قافلة من الإسماعيليين، فاتفقوا على بيعه لهم، فأخرجوه منها وباعوه لهم بعشرين درهمًا (التكوين ٣٧ :٢٨).

ولكن القرآن يخبر أن القافلة هي التي أخرجته منها. ويكفي لإبطال زعم التوراة أن نذكر أن هناك تعارضًا صارخًا فيها حتى في بضع جمل وردت عن الحادثة. ففي الجملتين رقم ٢٥و٢٧ ذكرت أن الركب كان من الإسماعيليين، ثم في الجملة التالية زعمت أنه كان من المديانيين، ثم عادت فقالت في آخر الجملة نفسها أنهم الإسماعيليون. مع أن هناك بونًا شاسعًا بين القبيلتين. فالكتاب الذي يخطئ ويتعثر بهذا الشكل في أربع جمل كيف يمكن اعتباره حاكمًا ومهيمنًا على القرآن الكريم؟ كما أن التلمود أيضًا يؤكد صحة بيان القرآن مائة بالمائةَ (الموسوعة اليهودية كلمة كلمة Joseph).

كذلك ورد في التلمود: بينما إخوته يتحدثون عنه جاء ركب من المديانيين في

طلب الماء ونزلوا صدفةً على البئر نفسها التي ألقوا يوسف فيها. وتحير أهل الركب من وجود صبيّ وضيءٌ جميل نبيل، فأخرجوه منها واصطحبوه وساروا. ولما مروا بأبناء يعقوب ورآه هؤلاء معهم صاحوا بهم: لماذا سرقتم عبدنا الذي ألقيناه في البئر لعصيانه؟ رُدُّوه إلينا. (التلمود، ترجمة H. Polano ص٧٤-٧٥)

وهذه الرواية التلمودية أيضًا تتفق تمامًا مع بيان القرآن. فلا يستساغ أبدًا ترجيح بيان التوراة على بيان القرآن الذي يدعمه التلمود والعقل أيضًا.

وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾

شرح الكلمات:

مثواه: الثواء والمثوى الإقامة مع الاستقرار. (المفردات) والمثوى: المترل (الأقرب).

مكّنّا: مكّنته ومكّنت له فتمكّن فهو مكين ومتمكّن أي ذو قدر ومترلة (المفردات). مكن فلان عند السلطان مكانةً: عظم عنده وارتفع وصار ذا مترلة (الأقرب).

تأويل: التأويل من الأَوْلِ: أي الرجوع إلى الأصل، وذلك هو رد الشيء إلى الغاية المرادة منه علمًا كان أو فعلاً (المفردات). والتأويلُ: العاقبةُ؛ بيانُ أحد محتملات اللفظ. أَوَّلَ الشيء إليه: رجّعه، ومنه قولهم: في الدعاء للمضل: أوّل الله عليك أي ردَّ عليكَ ضالّتك. وأوّل الكلام: دبّره وقدّره وفسّره. وأوّل الرؤيا: عبّرها (الأقرب).

التفسير: لما وصل الركب إلى مصر باعوا يوسف بثمن لا بأس به. تقول الكتب

اليهودية بأن الذي اشتراه في مصر اسمه "فوطي فار"، وكان رئيس الحرس الملكي. وكان هذا المنصب يُعتبر في القديم أكبر منصب في البلاط الملكي. وفي الحكومات الإسلامية أيضًا كان الحاجب (رئيس الحرس) والكاتب (السكرتير الخاص) يعتبران أعلى درجةً من غيرهما من أفراد الحاشية، أما في أواخر حكم الخلفاء العباسيين فكان الحاجب أعلى درجة من الكاتب أيضًا.

وهذا الذي اشتراه من مصر أدرك برؤية ملامحه نبله وشرفه، فنصح زوجته أن لا تعامله كالخدم الآخرين بل أن تعامله بإكرام، فربما ننتفع به في يوم من الأيام، أو نتخذه ابنًا لنا إذا وجدناه ولدًا غير عادي.

هناك حذفٌ بعد قوله تعالى:﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ﴾، والتقدير: "وكذلك مكّنّا ليوسف في الأرض لنكرمه ولنعلمه تأويل الأحاديث". أي أننا بوأنا يوسف بيتَ رئيس الحرس لنكرمه من جهة، ولنـــزيده علمًا في الروحانيات بإيقاعه في المحن والاختبارات، لأن هذا ضروريّ للرقي الروحاني. وبالفعل، فقد قدّر الله ليوسف عليه السلام أن يقع في الخصومة مع امرأة العزيز ليمر بمجاهدات روحانية خاصة.

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾

شرح الكلمات:

أَشُدَّه: بلغ فلان أشُدَّه أي قوته، وهو ما بين ثماني عشرة إلى ثلاثين سنة، والمشهور أن ذلك بمعنى الإدراك والبلوغ. (الأقرب)

التفسير: ليس المراد منه أنه تَشرَّف بالنبوة بمجرد أن بلغ شبابه، بل إنه من أسلوب القرآن أنه يترك أحيانًا أحداث الفترة المتوسطة جانبًا بذكر النتيجة فقط.

وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٤﴾

شرح الكلمات:

راودتْه: راوده: شاءه. وراوده عن نفسه وعليها: خادعه، وفي القرآن: وراودتْه التي هو في بيتها عن نفسه، أي طلبت منه المنكر (الأقرب). المراودة أن تنازع غيرك في الإرادة فتريد غير ما يريد أو ترود غير ما يرود. وراودتُ فلانًا عن كذا، قال الله تعالى: (تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ) أي تصرفه عن رأيه (المفردات).

هيت لك: أي هلمّ لك وتعال (الأقرب). هيت لك أي تهيأت لك (المفردات).

التفسير: توضّح هذه الآية أن يوسف عليه السلام لم يقع في شَرَك امرأة العزيز، فباطلٌ قول بعض المفسرين بأنه كان على وشك أن يقع فريسة لإغرائها (الطبري).

أما قوله تعالى ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ فالمراد من (رَبِّي) هو الله تعالى. وقد أخطأَ من قال بأن المراد منه رئيس الحرس الذي كان يوسف في بيته (تفسير القرطبي). مما لا شك فيه أن العزيز كان قد أكرم مثوى يوسف وهيأ له إقامةً محترمة، ولكن وصول يوسف إليه وتفكير العزيز في تكريمه أيضًا لم يكن إلا بفضل الله تعالى. فلا حق لنا أن نسيء الظّن في إنسانٍ كريم كيوسف فنتوهم أنه نسب نجاحه في ترك المعصية إلى الناس لا إلى أفضال الله تعالى. الحق أن كل ما ناله إنما ناله بحسب بشارات من الله تعالى، فلا شك أنه نَسَبَ ورعه وتقواه إلى فضل الله تعالى، إذ كان يرى في ارتكاب المعصية نكرانًا للنعم الإلهية.

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٥﴾

شرح الكلمات:

هَمّتْ به وهمّ بها: همّ بالشيء نواه وأراده وعَزَم عليه وقصده و لم يفعله (الأقرب).

المخلَصين: أخلَص الشيءَ: اختاره، وأخلَصه الله: جعله مختارًا خالصًا من الدنس (الأقرب).

التفسير: وكما سبق آنفًا فإن كلمة "الهمّ" تعني: عقد الإنسان العزم على فعل شيء، وإن لم يستطع تنفيذه لسبب من الأسباب. فالآية تعني أن زوجة العزيز أرادت أمرًا بيوسف ولكنها لم تقدر على تنفيذه، كذلك أراد يوسف أمرًا لامرأة العزيز ولكنه لم يستطع تنفيذه هو أيضًا.

يرى بعض المفسرين أن المراد من الآية أن كل واحد منهما أراد ارتكاب الفاحشة (الدر المنثور). ولكن هذا الرأي باطل تمامًا فقد سبق أن أبطله الله في الآية السالفة، حيث صرح أن امرأة العزيز احتالت لصرف يوسف عمّا في نفسه ولكنه لم يتأثر بمكائدها، بل ذكر ربه خشية، وحذّر المرأة من العواقب.

إذن فلا يمكن أبدًا أن يراد من قوله تعالى ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ أنه أراد بها سوءًا. فإن إرادة كل إنسان تفسَّر بحسب حالته، وقد وصف الله في الآية السالفة حال الاثنين إذ قال إن المرأة كانت تنوي بيوسف السوء ولكنه صدّها عن هذا الظلم محذرًا إياها من عواقبه. فالمراد من "هم بها" أنها كانت عازمة على أن تنحرف به إلى الشر، وأما هو فكان يريد لها أن تهتدي إلى الخير، بيد أنَّ الاثنين لم يفلحا فيما أرادا، إذ لم يقبل هو ما بغتهُ من سوء و لم تقبل هي ما أراد بها من خير.

أما قوله تعالى ﴿لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ فليس بمتعلق بقوله ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾، بل هو

جملة منفصلة مستقلة، وجوابها محذوف. وهناك نظائر عديدة لمثل هذا الحذف كقول الله تعالى ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ (النور:١١)، وقوله تعالى ﴿وَلَوْلا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (القصص:٤٨). والمراد من هذه الجملة أن يوسف رأى البراهين والآيات من الله تعالى في الماضي، ولولاها لما وجد هذه العزيمة والتصميم على مقاومة الشر. فمثلاً لم ينصح المرأة بالكفّ عن السوء بل بقيَ صامتًا، ولكنه قد رأى آيات الله فلم يكن يُتوقع منه إلا أن يصدها عن ارتكاب المعصية، ولكنها -لسوء حظها- لم تقبل نصيحته وأصرت على الفاحشة.

وقد اختلف المفسرون بمعنى البرهان الذي رآه يوسف، فمنهم من يرى أن يوسف أيضًا كان قد رضي بالإثم واستعد لارتكابه، فطلبت منه امرأة العزيز إلقاء رداء على صنم في بيتها لأنها كانت تشعر بالخجل منه، فتنبه يوسف وعاد إلى الصواب وقال:"أنا أحق بالخجل والحياء من ربي الذي يعلم ويرى"(الدر المنثور). بينما قال الآخرون إنه رأى في السقف عبارةً تقول: ﴿وَلا تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾. وكأن القرآن كان قد تم نزوله حينئذ! ويرى غيرهم أنه رأى يدًا مكتوبًا عليها قول الله تعالى ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۞ كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾. ويزعم البعض أنه رأى صورة أبيه يعقوب عليه السلام وهو يعض أنامله، فرجع عمّا نواه (ابن كثير).

والحق أن كل هذه المزاعم باطلة لا أساس لها من الصحة. وإنما يعني ﴿ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ تلك الآيات والبراهين التي كشفها الله ليوسف عليه السلام في الماضي؛ ومنها رؤياه التي بشره الله بها عن مستقبل باهر، والوحي الذي تلقاه وهو في البئر يبشره بالنجاة منها وبأنه سوف يحقق رقيًا غير عادي بحيث سيضطر إخوته في يوم من الأيام للمثول أمامه خاضعين. وأيُّ شك في أن الذي كان يهيئه الله لمثل هذه الإنجازات العظيمة لا يمكن أن يهينه ويخزيه هكذا أمام امرأة مشركة.

قوله تعالى ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ يعني أولاً أننا إنما أريناه الآيات

والبراهين لكي نكفّه عن المساوئ والفواحش. والحق أن هذا هو الهدف الذي يحققه الله بإظهار الآيات والبراهين على عباده الأخيار. فكيف يمكن أن لا يتحقق هذا الغرض الإلهي في قضية يوسف بل تنقلب النتيجة تماما.

والمعنى الثاني، أن هذا الحادث وقع لكي ينجيه الله تعالى من صحبة هذه المرأة الشريرة. فمن الحقائق التي لا يحوم حولها الشك أن العيش في صحبة الأشرار يؤثر سلبيًا في عقل الإنسان وأفكاره. ولو أن امرأة العزيز لم تبدِ نيتها الشريرة بهذا الطريق ليبقى يوسف في صحبة هذه المرأة وزميلاتها الفاسدات الأخلاق. فلم يرد الله أن يعيش يوسف في صحبتهن، فكشف عن نواياها الشريرة على الفور، وفصل بينه وبينهن بإرساله إلى السجن حيث ينقطع كليةً إلى عبادة الله تعالى على انفراد.

المماثلة الحادية عشرة: كما أن امرأة العزيز حاولت صرف يوسف عن الصراط المستقيم، كذلك سعى أعداء النبي ﷺ لصرفه عن دينه بشتى الإغراءات. فقد سجل التاريخ أن وفدًا من قريش جاءوه ﷺ ووعدوه أن يعطوه مالاً فيكون أغنى رجل بمكة، أو يزوّجوه من أراد من النساء وأن يجعلوه سيدًا عليهم شريطة أن لا يذكر آلهتهم بسوء. فردّ عليهم النبي ﷺ بمقولته الخالدة: "والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر لما تركته حتى يُظهره الله تعالى أو أهلك دونه". (السيرة لابن هشام).

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الحادث بكلمات مماثلة حيث قال: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً ۞ وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً﴾ (الإسراء: ٧٣ و٧٤) مما يعني أن هؤلاء حاولوا اختبار النبي ﷺ ولكنهم فشلوا فشلاً ذريعًا، لأن كلام الله تعالى كان قد ثبّت فؤاده فكان إيمانه راسخًا رسوخ الجبال.

وهناك مشابهة أخرى بين النبيين الكريمين وهي: كما أن الناس قالوا في تفسير بعض الآيات القرآنية عن يوسف عليه السلام بأنه كان قد مال إلى السيئة قليلا، كذلك

زعموا في تفسير آيات من القرآن أن النبي ﷺ كان قد مال إلى الكفار قليلاً. فالحق أن القرآن لم يقصد أبدًا في هذه الآية ما ذهب إليه المفسرون.

وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٦﴾

شرح الكلمات:

استبقا: تسابقا أي سبق أحدهما الآخرَ أو أراد أن يسبقه. استبقا الصراطَ: جاوزاه وتركاه حتى ضلّا. وأما قوله: واستبقا البابَ، فبتقدير الجار.. أي تسابقا إليه، أو على تضمين الفعلِ معنى الابتدار أي ابتدرا البابَ (الأقرب).

قُدّ: قدّ الشيءَ: قطعه مستأصلاً، وقيل مستطيلاً، وقيل شقّه طولاً (الأقرب).

التفسير: لما رأى يوسف عليه السلام أن نُصْحَه لا ينفعها شيئًا، فكّر أنه لو بقي عندها مدة أطول فقد يعرّضه هذا للاتهام، فحاول الفرار من هناك. ولكن امرأة العزيز حاولت إيقافه ممسكة بثوبه من الخلف، فشقّته شقًا مستطيلاً. وتزامن ذلك حضور زوجها إلى البيت، فحاولت إخفاء جريمتها بأن اتّهمت يوسف البريء بالاعتداء عليها، ثم لم تلبث أن اقترحت بنفسها عقابه بأن يُسجَن أو يعذَّب عذابًا أليمًا.

يبدو من كلمة ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ أن يوسف عليه السلام أسرع إلى الباب ليفتحه ويفر منها، ولكن امرأة العزيز بادرت إلى الباب لتمنعه من فتحه. فلو كانت هي التي تريد الفرار لما أخذت بمؤخر قميصه. فلا شك أنها جرّته من قميصه لتدفعه عن الطريق وَلتقف هي أمام الباب حتى لا يستطيع فتحه، ولكنها فشلت في هذه المحاولة.

هنا أيضًا يعارض القرآن التوراة في بيانها، فقد جاء فيها أن يوسف فرّ تاركًا ثيابه

عند المرأة (التكوين ٣٩: ١٣). ولو أخذنا بعين الاعتبار أن العبرانيين ما كان لباسهم عندئذ إلا قميصًا طويلاً واحدًا على العموم، فهذا يعني أن يوسف فرّ من عندها عاريًا، وهو أمر مكروه للغاية لا يتوقع صدوره عن إنسان كيوسف عليه السلام. فلا ريب أن بيان القرآن هو الأقرب إلى العقل والمنطق، إذ لم يفر من عندها تاركًا ثيابه وراءه وإنما انشق قميصه من الخلف.

قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ ﴿٢٨﴾

شرح الكلمات:

شَهِدَ: شهد المجلسَ شهودًا: حضَره؛ اطّلع عليه؛ عايَنَه. شهد الجمعةَ: أدركَها. وشهد على كذا: أخبر به خبرًا قاطعًا. وشهد عند الحاكم لفلان على فلانٍ بكذا شهادة: أدَّى ما عنده من الشهادة (الأقرب).

الصادقين: الصدقُ: نقيضُ الكذب، هو الذي يكون ما في الذهن مطابقًا لما في الخارج (الأقرب). والصدق: مطابقة القول الضميرَ والمخبَرَ عنه معًا، ومتى انخرم (أي سقط) شرط من ذلك لم يكن صدقًا تامًا، بل إما أن يوصَفَ بالصدق، وإما أن يوصف تارةً بالصدق وتارةً بالكذب على نظرَين مختلفين (المفردات).

التفسير: إنّ ما فعله يوسف هو الذي يليق بمقام عباد الله الأخيار، فإنه رغم كونه مظلومًا لم يبادئ الحديث عمّا حدث بل حاول ستر خطيئة المرأة، ولكنها لما اتهمته بالإثم كذبًا اضطر لبيان الواقع، وأخبر زوجها قائلاً: لم أُفكر أبدًا في الخطيئة وإنما هي

التي كانت تحاول إغرائي بها بل وإرغامي عليها.

ثمّ إن الله بنفسه هيّأ ظروفًا برأت ساحة يوسف، حيث قام شاهد من أهلها يشهد لصالحه إذ نبَّه أنه لو كان يوسف هو الذي نوى بها الشر لكان هناك احتمال أكبر أن يتمزق قميصه من الأمام، ولكن قميصه قد تمزَّق من الخلف وهذا دليل واضح أن هذا المسكين كان يريد الفرار منها وأنها هي التي كانت تريد إيقافه ومنعه من الهروب.

وحيث إن القرآن لم يذكر من قبل حادثة تمزُّق القميص، يبدو أن هذا الشاهد هو أول من رأى القميص ممزقًا من الخلف، ولكنه لم يصرح بذلك خوفًا من غضب تلك المرأة، وإنما تحدث بأُسلوب وكأنه يبين قاعدة عامة لمعرفة الحقيقة في مثل هذه الظروف.

تذكر المصادر الإسلامية أن اسم المرأة كان "زليخا"، ولكن التوراة لم تذكر لها أي اسم. غير أن التلمود أيضًا ذكر أن اسمها "زليخا" (التلمود، ترجمة بولائيو ص ٨٠). ويبدو أن المسلمين نقلوا هذا الاسم عن هذا المصدر.

فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٩﴾

التفسير: يبدو أن هذا من كلام العزيز. فعندما نبّهه الشاهد إلى فحص القميص ووجده ممزقًا من الخلف أدرك الحقيقة.

قال البعض بأن قوله ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ يعني أن النسوة بطبعهن يملن إلى المكر والكيد بوجه خاص.

مما لاشك فيه أن النسوة بسبب تعرضهن للظلم والعدوان مِنَ الرجال عمومًا يَكُنّ أشدَّ مكرًا من الرجال وأمهَرَ منهم في التمويه والتعتيم، ولكن هذه العادة ترجع إلى

هضم حقوقهن بأيدي الرجال. ومن أجل ذلك لا نجد هذه العادة في نساء الشعوب أو العائلات التي تؤدَّى فيها حقوق النساء كاملة، بَل نجد على النقيض من ذلك أن الرجال في الأمم المقهورة بأيدي الظالمين يلجئون أيضًا إلى المكر والخداع. فهذه العادة ليست خاصة بالنسوة فقط، وإنما هي نتاج الظلم وهي قائمة لدى الجنسين على حد سواء.

كما يجب أن نعلم أن عبارة ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ ليست قرارًا سماويًا وإنما هي من قول العزيز، وقوله ليس بحجة علينا. لقد تفوّه به غاضبًا، والذين لا يملكون أنفسهم عند الغضب يتفوّهون بمثل هذا الكلام، سواء كانوا من النسوة أو الرجال. إننا نرى دائمًا أنَّ كل جنس يرمي الجنس الآخر بشتى النقائص والعيوب. فمن اعتبرها قاعدة عامة أو حقيقة ثابتة فقد ساق دليلاً على جهله وقلة إدراكه فحسب. إذ لا أحد يقصد من مثل هذه الأقوال أن المخاطَب أو جميع أفراد الجنس الآخر مخطئون. فمن حمل مثل هذه الأفكار الخاطئة عن جنس النساء الذي خرجت منه سيدات فاضلات عظيمات مثل مريم وخديجة وعائشة رضوان الله عليهن، فلا شك أنه لا يهين إلا نفسه.

يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾

شرح الكلمات:

أعْرِضْ: أعرضَ عنه أضرب وصّد، وحقيقته جعلُ الهمزة للصيرورة، أي أخذتُ عرضًا أي جانبًا غير الجانب الذي هو فيه (الأقرب). فالمعنى دَعْكَ من هذا ولا تبالِ به.

التفسير: هذا أيضا من كلام العزيز، حيث ينصح زوجته من ناحية، ومن ناحية أخرى ينصح يوسف عليه السلام بأن يتغاضى عما حدث ولا يُفشي هذا السر.

وهنا نجد اختلافًا آخر بين ما ورد في القرآن وما ورد في التوراة، فإنها تذكر أن العزيز صدّق زوجته في قولها، وعَدَّ يوسفَ مجرمًا وغضب عليه (التكوين ٣٩: ١٩-٢٠). ولكنها سرعان ما تعود لتؤيد القرآن بقولها: فدفع رئيس بيت السجن إلى يد يوسف جميع الأسرى الذين في بيت السجن. وكل ما كانوا يعملون هناك كان هو العامل (التكوين ٣٩: ٢٢).

ونعرف من التوراة أن زوج زليخا وهو العزيز "فوطيفار" نفسه كان يشرف على السجن حيث ورد فيها: "فسخط فرعون على خَصِيَّيه رئيسِ السُقاة ورئيسِ الخبّازين، فوضعهما في حبس بيت رئيس الشُرَط في بيت السجن المكانِ الذي كان يوسف محبوسًا فيه. فأقام رئيسُ الشرطِ يوسفَ عندهما".(التكوين٤١:٢،٤) وإنه لمما يتنافى مع العقل أن يكون العزيز قد وجد يوسف عليه السلام يحاول الهجوم على عرضه ومع ذلك يعيّنه مشرفًا على السجن. ثم إنه من غير المعقول أيضًا أن يضع العزيز هؤلاء السجناء الخصوصيين -الذين أمر الملك بسجنهم- تحت رقابة يوسف عليه السلام وهو يعرف أنه عدوه. فتبين من ذلك كله أن العزيز كان على يقين مِن براءة ساحة يوسف من التهمة.

وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾

شرح الكلمات :

العَزيزُ: الشريفُ؛ القويُّ؛ المكرَّمُ؛ وهو من أسماء الله تعالى أي المنيع الذي لا يُنال ولا يُغالَبُ؛ المِلكُ لغلبته على أهل مملكته؛ لقبُ من مَلَكَ مصرَ مع الإسكندرية (الأقرب).

شَغَفَها: شغَفهُ شَغْفًا: أصاب شَغافَه. شغفهُ حبهُ شغَفًا: علِق بالشَغاف. والشغاف: غلاف القلب؛ وقيل: حجابه؛ وقيل: حبّته؛ وقيل: سُوَيداؤُه (الأقرب).

ضَلال: الضلال: الهلاكُ؛ الفضيحةُ؛ الباطلُ؛ ضدُّ الهدى (الأقرب). قوله تعالى ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ﴾ وقوله: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ إشارة إلى شغفه بيوسف وشوقه إليه، وكذلك﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ (المفردات).

التفسير: (العزيز) كان لقبًا لملوك مصر في ذلك الزمان، ولكن هذه المرأة لم تكن زوجة الملك المصري عندئذ إنما كانت زوجةً لرئيس حراسه. يبدو أن هذه الكلمة كانت تطلق أيضا على أعيان البلد، أو أن النسوة أطلقن هذا اللقب عليها تملقًا لها مثلما يسمّي الخادم سيده ملكًا وغير ذلك من الألقاب. وعندما شاع خبر الحادث بين أقارب العزيز وسمعته بعض النسوة اللاتي كن صديقات لامرأته فيما يبدو، بدأن في نشر الخبر علنًا. ولكنهن -بغية التشهير بها- أَذَعْنَ الخبر بحيث يتوهم الناس وكأن الغرام بينهما لا يزال مستمرًا. وهكذا قدّمن الحادث بشكلٍ مشوّهٍ يوهم السامع وكأن يوسف عليه السلام أيضا كان متورطًا في المعصية.

وأما كلمة (حُبًّا) في قوله ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ فهي للتمييز، والمعنى: قد شغفها حبه، ومثاله: طاب محمد نفسًا أي طابتْ نفسُ محمد، والمراد: أن حب يوسف قد تمكّن من قلبها أي أنها أَحبَّتْهُ حبًا شديدًا، غير مبالية بالعواقب. فكأَنَّ هؤلاء النسوة قمن بهجائها ولكن هجاءً مليحًا.

فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلا مَلَكٌ كَرِيمٌ

شرح الكلمات:

سَمِعَت: سمع بالشيء معناه أنه سمع خبرًا كان شائعًا، إذ ورد سَمَّع بكذا: شيّعه، وسمّع بالرجل: أذاع عنه عيبًا وندّد به وشهّره وفضحه (الأقرب).

متّكأ: اتكأ: جلس متمكنًا، يقال اتكأ على السرير. اتكأ القوم عند فلان: طَعِموا عنده. قال جميل: فظللنا بنعمة واتكأنا: أي طعمنا. واتكأ على عصاه: تحمّل واعتمد عليها. قال ابن الأثير: والعامة لا تعرف الاتكاء إلا الميلَ في القعود معتمدًا على أحد الشقَّين، وهو يُستعمل في المعنيين جميعًا، يقال اتكأ إذا أسند ظهره أو جنبه إلى شيء معتمدًا عليه. وكلٌّ من اعتمد على شيء فقد اتكأ عليه. والمتكأ مجلس يُجلس عليه للاتكاء (الأقرب).

سِكّينًا: السِكّين آلة يُذبَحُ بها. والسِكِّينةُ: السِكِّينُ وهي أخصُّ منه. والسِكِّينةُ: الطمأنينة (الأقرب).

خَرَجَ عليهنّ: خَرج عليه: برز لقتاله. وخرجت الرعية على الوالي: خلعت طاعته، وخرج الوالي على السلطان: تمرّد، وخَرج إلى فلان من دَينه: قضاه إياه (الأقرب).

أكبرنَه: أكبرَه: رآه كبيرًا وعظم عنده (الأقرب).

حاشَ لله: حاشَ منه يحيش حيشًا: فزع. ويقال حاشى زيدًا من القوم: استثناه. حاشا: ويقال فيها أيضًا حاشَ وحشى. وقال في "الإيضاح": كلمة استُعملت للاستثناء فيما يتزَّه فيه المستثنى عن مشاركة المستثنى منه في حكمه (الأقرب). قال أبو

البقاء: حاشَ لله: فاعِلُه مضمرٌ. تقول: حاشَ يوسف بخوف الله. إذا كان (حاشَ) فعل أمر من حاشى يحاشي فالمعنى اتقِ الله أيها المخاطب ولا تتّهم يوسف بهذا، استُبدلت الفتحة بالكسرة (حاشية الجلالين). وقال صاحب "المغني": الصحيح أنها اسم مرادف للبراءة من كذا، بدليل قراءة بعضهم: حاشًا لله بالتنوين، كما يقال: براءةً لله. وعلى هذا فقراءة ابن مسعود: حاشَ اللهِ كمعاذَ اللهِ.

التفسير: أي عرفت امرأة العزيز أن النسوة يتحدثنَ عنها بأسلوبٍ يبدو طيبًا ولكنهن في الواقع يَبْغين التشهير بها، حيث يوهمن الناس وكأن الفاحشة قد ارتُكبت فعلاً، رغم إعلان أهلها بأن الأمر ليس كذلك، وأدركت بأنهن يحسبن أن الغرام بينهما لا يزال قائمًا مستمرًا، مع أَن كل ما في الأمر أن بوادر الغرام قد ظهرت من امرأة العزيز، ولكن الأمر لم يتعدّ ذلك. فلكي تزيل "زليخا" هذه الأوهام والشبهات من أذهانهن، دعتهن إلى الطعام. فرتبت الموائد ووضعت سكينًا أمام كل واحدة منهن -ويتضح من ذلك أن استخدام السكاكين لتناول الطعام عادة قديمة، مثلما يرتبون اليوم السكاكين على الموائد قبل إحضار الأطباق- ثم أمرت امرأة العزيز يوسفَ أن يضع أمامهن الطعام. فلما رأينه أدركن من ملامح وجهه الكريم أنه ليس من صنف البشر الذين يأتون الفواحش. واعترفن بعظمته وطهارته، وبخطأ ظنهن فيه، وببراءته من التورط في الإثم مع المرأة.

وأما قوله تعالى ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ فيمكن تفسيره بطريقين. الأول: أن ما رأينه من عظيم نبله وشرفه وبراءته بَهَرَهن لدرجة أنهن اهمكن في مشاهدة هذا المحيّا حتى إن بعضهن جرحن أيديهن بالسكاكين.

والثاني: أن هذا تعبير عن شدة الحيرة والدهشة بمعنى أنهن قمن بعضّ أناملهن من روعة المشهد وقلن: كيف خطر لنا أن نظن أن هذا المَلَك الكريم يمكن أن يقترب من الفاحشة. وعض الأنامل يدلّ كذلك على الندم. وقد جاء هنا بكلمة (أيدي) بدل (أنامل) بحسب عادتهم في ذكر الكل مكان البعض.

ولقد ورد في التلمود أنها وضعت أمامهن البرتقال، وأمرت يوسف بالقيام بخدمتهن، فانهمكن في رؤية وجهه الجميل منبهرات فجرحن أيديهن.

أما الجملة ﴿إِنْ هَذَا إلا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ فتعني أنهن عندما رأينه أقررن بعظمته وورعه، و لم يلبثن أن قلن إنه ملَك كريم. وهذا يعني أنه يمكن إطلاق كلمة "المَلَك" على البشر مجازًا.

قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾

شرح الكلمات:

استعصمَ: امتنعَ وأبى، تقول: دُعيَ إلى مكروه فاستعصم أي أبى وطَلَب العصمة. واستعصم: تحرَّى ما يعصمه. واستعصم به: استمسك به ولزمه. واستعصم من الشر والمكروه: التجأ (الأقرب).

لَيَكُوْنًا: أصلُه لَيَكُوْنَنْ.

الصاغرين: صغُر: ضدُّ عظُم؛ هان بالذل. وصغُرت الشمس مالت للغروب. صغِر القومَ: كان أصغرَهم. الصاغرُ: المهان الراضي بالذل والضيم، جمعه الصاغرون (الأقرب).

التفسير: لقد ذكرنا من قبل أن النسوة تحدثن بأسلوب يوهم بأن الفاحشة قد ارتُكبت فعلاً. ودفعًا لهذا الوهم قامت امرأة العزيز بدعوتهن إلى الوليمة. والظاهر أن هذه الفعلة يستحيل ارتكابها ما لم يرض بها الرجل، فلذا عرَّفت هذه المرأة صديقاتها بيوسف عليه السلام ليعترفن بأفواههن بأنه أسمى من الوقوع في هذه الرذيلة. ثم بيّنت لهن

واقع الأمر قائلةً: لقد حاولت إيقاعه في شَرَكي ولكنه امتنع عما أريد منه. وكما هو بادٍ من حديثها فإنهن كنّ صديقات سوء، ولذلك بعد أن برّأت ساحته من الفاحشة أكدت لهن نيتها الشريرة نحوه قائلة: إنه إذا لم يخضع لرغبتي فسوف أرغمه على السجن وأذيقه الخزي والهوان.

والغريب أن المفسرين يقولون بأن يوسف مال إلى ارتكاب المعصية ولكن المرأة التي كانت محور الحادث والتي رأت في رفضه لرغبتها إهانة لها، نجدها تعلن أنه لم يقع في مكيدتها بالرغم من محاولتها المضنية، بل استعصم وسلِم.

ومن عجائب القدر أن المرأة هددته بالذل والهوان بإلقائه في غياهب السجن، ولكن السجن نفسه أصبح سببًا في عزة يوسف وشرفه، إذ جعله الله تعالى من خلال دخوله السجن مقربًا للملك، ووزيرًا للمال. وهكذا تحقق ما هددته به، كما أنجز الله وعده معه، ليبين أن كل شيء في قبضته وقدرته، فلو شاء لخَلَقَ من أسباب الخزي والذل دواعيَ العز والشرف.

قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٤﴾

شرح الكلمات:

أصبُ: صبا يصبو صَبْوًا وصُبُوًّا وصِبًا وصِباءً: مال إلى الصبوة أي جَهْلِ الفتوة، ومنه أن نفسه تصبو إلى الخير، وهو يصبو إلى معالي الأمور. صبا إليه صَبوَةً وصُبوَةً وصُبُوًّا: حنّ إليه (الأقرب).

الجاهلين: الجهلُ على ثلاثة أضربٍ: الأول: وهو خلو النفس من العلم؛ والثاني:

اعتقاد الشيء بخلاف ما هو عليه؛ والثالث: فعلُ الشيء بخلاف ما حقُّه أن يُفعل (المفردات).

التفسير: لقد أكد الله في الآية السابقة براءة يوسف بلسان امرأة العزيز، وهنا أكدها بلسان يوسف نفسه وهو يبتهل إلى ربه قائلاً: يا ربِّ إن لم تردَّ عني مكرهن فسوف أميل إليهن. مما يعني أنه لم يكن قد مال إليهن من قبل هذا، ناهيك أن يرتكب الفاحشة معها. أوليس غريبًا أن المرأة نفسها تعلن أنه لم يمل إليها، كما يؤكد ذلك يوسف بلسانه أيضًا، ثم إن النسوة اللاتي رأينه شهدْنَ أن صدور المعصية من مثل هذا المَلَك الكريم أمر مستحيل، ويأتي المفسرون بعد الحادث بآلاف السنين لكي يعلنوا أن يوسف كان قد مال إلى ارتكاب الفاحشة أولاً، ولكنه تنبه فيما بعد وتاب!

لقد ذكرنا إلى الآن عديدًا من المشابهات بين يوسف والرسول الكريم عليهما السلام، ولكن هذه الآية توضح الفارق بين النبيين الكريمين، وتبين فضل النبي وعظمته ﷺ. ذلك أن يوسف عليه السلام يستغيث الله تعالى بأن ينقذه من تلك المصيبة بإلقائه في المصيبة الأخرى، ولكن من سنة الرسول الكريم محمد ﷺ أنه كان يسأل ربه العافية والخير دائمًا، لأنه ﷻ قادر على ردّ المصيبة بإعطاء النعمة.

فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾

شرح الكلمات:

استجاب: استجاب الله فلانًا وله ومنه: قبِل دعاءه وقضى حاجته (الأقرب).

التفسير: أي أن الله تعالى خيّب آمالهن الشريرة في يوسف وجعلهن يَيْأسْن منه، كما زاد قلبه قوة وثباتًا.

ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ﴿٣٦﴾

شرح الكلمات:

بَدا: بدا له في الأمر: نشأ له فيه رأيٌ (الأقرب).

التفسير: لم يكن دخوله السجن استجابة لدعائه، لأن الدعاء لدخول السجن لم يكن حلاً حقيقيًا لما هو فيه، وقد ذكرت الآية السابقة أن الله تعالى صرفَ عنه كيدهن استجابة لدعائه. لا شك أن يوسف عليه السلام كان قد دعا ربّه أن يُدخله السجن، ولكن الله تعالى استجاب لدعائه بأن دفع بَلاءَه بطريق آخر أفضل دون أن يُدخله السجن. ثم إنه بعد مرورِ فترةٍ من الزمن طرأت ظروف مختلفة أدت إلى دخوله السجن، كما يصرح الله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾. وأرى أن المراد من الآيات المذكورة هنا هو الفضيحة المتزايدة التي تعرضت لها امرأة العزيز.. فرأوا من الأنسب أن يسجنوه ليتوهم الناس أن يوسف هو الجاني وأن امرأة العزيز بريئة، وذلك محاولةً منهم لاستعادة ما فقدته هذه المرأة من عزة واحترام.

تقول التوراة بأن العزيز سجن يوسف أول ما نشب الخصام (التكوين ٣٩: ١٩). ولكن القرآن الكريم يعارض التوراة في زعمها هذا ويرى أنه سُجن فيما بعد. وكما سبق أن بينتُ فإن بيان التوراة مرفوض حتى بناءً على ما ورد فيها في أماكن أخرى، فمثلاً قد جاء فيها: "فسخط فرعون على خَصِيَّيه رئيسِ السقاة ورئيسِ الخبّازين، فوضعهما في حبس بيت رئيسِ الشُّرَط في بيتِ السجن المكانِ الذي كان يوسف محبوسًا فيه. فأقام رئيس الشرط يوسفَ عندهما" (التكوين٤٠: ٢-٤). فثبت جليًا أن العزيز كان يرى يوسف عليه السلام صادقًا في قوله حول الحادث، وأنه لم يسجنه في بداية الأمر، وإنما اضطر لسجنه فيما بعد لبعض المصالح الأخرى.

وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾

شرح الكلمات:

أعصِرُ خمرًا: عصرَ العنبَ ونحوهُ يعصرُ عصرًا: استخرجَ ماءه. عصَرَ الثوبَ: استخرجَ ماءه بلَيِّه. وعصرَ الدمّل: استخرجَ مِدّته.عصر الركضُ الفرسَ: عرّقه. عصر الشيءَ عنه: منعه. وعصر فلانًا: أعطاه العطيةَ. عصره: حبسه (الأقرب).

التفسير: قوله تعالى ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ لا يعني بالضرورة أنهما دخلا السجن في نفس اليوم أو الوقت الذي دخل فيه يوسف. نعم، لا بدّ أن يكونا قد أُسكنا في السجن في المكان الذي كان يسكنه يوسف عليه السلام. وهذا ما تؤكده التوراة أيضًا، حيث جاء فيها: فسخط فرعون على خصيّيه رئيس السقاة ورئيس الخبازين؛ فوضعهما في حبس بيت رئيس الشرط في بيتِ السجن، المكانِ الذي كان يوسف محبوسًا فيه. فأقام رئيس الشرط يوسف عندهما (التكوين٤٠: ٢).

وحُلم الفتيين هذا موجود في سفر (التكوين ٤٠) بتفصيل أكثر ولكن المعنى واحد. والحق أن سؤالهما يوسفَ عليه السلام عن تأويل الحلم إنما يدل على أنه كان شهيرًا بين أهل السجن بحسن سيرته وعظيم صلاحه، وإلا لما سَأَلَهُ الناس عن تفسير الأحلام إذا كان من ذوي الصلاح العادي. ثم إن الفَتَيين أيضًا يعترفان بعظيم صلاحه قائلين:﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيكُمَا

ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٨﴾

شرح الكلمات:

نبـــّأتكما: نبـــّأه الخبر وبالخبر: خبّره، ويقال: نبأت زيدًا أمرًا منطلقًا أي أعلمته. النبأ: الخبر. وقال في الكليات: النبأ والأنباء لم يرد في القرآن إلا لما له وقعٌ وشأنٌ عظيم (الأقرب).

التفسير: لقد لفت يوسف عليه السلام انتباه الفتيين إلى نفسه بطريقة بارعة.كان يخاف أن يتضايقا من تبليغه فلذا طَمْأَنَهما أولاً بأنني لن آخذ من وقتكما كثيرًا، بل سوف أقضي حاجتكما قبل أن يأتيكما الطعام. ويبدو من ذلك أنهم في القديم أيضًا كانوا يمنحون السجناء قبل موعد الطعام فسحة يروّحون فيها عن أنفسهم ويتجاذبون أَطراف الحديث كما هي العادة الشائعة في هذا العصر.

المماثلة الثانية عشرة: هنا أيضًا نجد تشابهًا بين يوسف وبين نبينا المصطفى عليهما السلام، إذ إن يوسف عليه السلام -كما يبدو- كان لا يجد فرصةً لدعوتهما إلى الله فلذا وَجَدَ في سؤالهما إيّاه فرصةً سانحةً للتبليغ مدركًا أنهما لا بد أن يصغيا إلى حديثه انتظارًا لسماع تأويل الأحلام.

هكذا كان يفعل رسولنا الكريم ﷺ، ففي بداية دعوته عندما أراد تبليغ الرسالة و لم يسمعه أعيان مكة. دعاهم لمأدبة طعامٍ، وبعد أن فرغوا من الطعام أراد دعوتهم إلى الإسلام، ولكنهم لم يستمعوا له، وخرجوا من عنده. فأقام لهم مأدبة أخرى، ولكنه في هذه المرة أخذ حيطته وشرح لهم دعواه قبل إحضار الطعام، فاضطروا للإصغاء إليه وهم في انتظار الطعام.

فهذه الآية تبين لنا سنة أنبياء الله عليهم السلام في مجال تبليغ الدعوة، وعلينا أن

نتأسّى بها دائمًا في وعظنا حتى نتمكن من قول ما نريد من حيث لا نثقل على الناس.

وبقوله ﴿ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ برهن على أن ما اتبعه هو الدين الحق، لأن الدين الحق هو ما يؤتي ثماره في كل حين ويوصل الإنسان بخالقه ﷻ.

وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ ﴿٣٩﴾

التفسير: أي أن الدين الذي اتبعه قد ساعد الناس دومًا على الوصال بالله تعالى، وأنه لَفضلٌ كبير من الله علينا أنه مهَّد هذا الطريق للعباد لكي يصلوا إليه، ولكن المؤسف أنهم لا يقدِّرون هذه المنة الإلهية حق قدرها.

ووضح بقوله ﴿ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾ أن النبوة لا تمثل نعمة لمن يتشرف بها فحسب، بل أنها إنعام إلهي على المؤمنين جميعًا، إذ ينتفعون من هذا المعين السماوي على قدر مراتبهم وجهودهم، كما أن الكفار أيضًا ينتفعون به رغم رفضهم للنبي، إذ يبدءون في رفض العديد مما لديهم من عقائد فاسدة وأفكار ضالة تأثرًا بتعاليمه.

يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ

شرح الكلمات:

القهّارُ: قهرَه قهرًا: غلبه فهو قاهر. وتقول أخذتُهم قهرًا أي من غير رضاهم. القهّار فعّال للمبالغة وهو اسم من الأسماء الحسنى (الأقرب).

التفسير: يقول يوسف عليه السلام إن أهل الدنيا ينتصرون على الآخرين بكثرة الأعوان والمساعدين، ولكن ربي ذو شأن عجيب، فإنه واحد أحد ومع ذلك غالب يقهر الجميع.

إن هذا التركيز الشديد من يوسف عليه السلام على هذه الصفات الإلهية لدليل على كماله الروحاني،مما يجدد إيمان المرء ويزيده.

مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلا لِلّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُواْ إِلا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾

شرح الكلمات:

القيّم: دينًا قـــيّمًا أي ثابتًا مقوِّما لأمور معاشهم ومعادهم (المفردات). القيِّم على الأمر: متولّيه. القيّمة: الديانة المستقيمة (الأقرب).

التفسير: يقول يوسف عليه السلام: ما الفائدة من عبادة أشياء لا دليل على وجودها، بل هي أسماء اخترعتموها من عند أنفسكم، لا يقوم على وجودها أي برهان ولا يصحبها من الله تعالى أي تأييد.

لقد أشار بذلك إلى مبدأ هام للغاية وهو: أن من يبعثه الله تعالى نبـــيًّا لابدَّ أن يأتي مصحوبًا ببرهان وتأييد من عنده تعالى. والواقع أن أهل الأديان المختلفة يختصمون

فيما بينهم عبثًا. عليهم أن يلتفتوا إلى هذا المقياس اليقيني لمعرفة الصادق ويروا ما هو الدليل الذي أتى به هذا المدّعي من عند الله. ذلك أن العقل لا يستسيغ أبدًا أن يرتكز الدين الحق على الأدلة العقلية فقط من غير أي تأييد سماوي. كلا، بل إن الذي يأتي من السماء لا بدّ أن يأتي مصحوبًا بأدلة سماوية أيضًا.

وقد بين بقوله: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أن الدين الحق إنما هو ما يسدّ للإنسان حاجات المعاش والمعاد معًا ويقدم تعليمًا يُصلح حالتيه الروحانية والجسمانية.

كما أشار بـــ"ذلك" إلى أنه لن يحقق هذه الأهداف إلا ذلك الدين الذي ينقذ الناس من الوثنية والشرك. وهذه حقيقة عظيمة للغاية، ولا جرم أن الشرك عقبة كأداء تعترض سبيل رقي الإنسان، إذ كيف يمكن لقوم يعبدون شتى عناصر الكون كالنار والهواء والجبال وغيرها أن يهبّوا لتحطيمها وتسخيرها لخدمتهم وتطورهم. إنما ينتفع من النواميس الطبيعية من يؤمن بأن كل ما في الكون هو من صنع الله تعالى خَلَقَه لنفع الإنسانية.

يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾

شرح الكلمات:

فيُصلب: صلَبه أي القاتلَ كضَرَبَه صلبًا: جعلهُ مصلوبًا. وفي لسان العرب: الصلبُ هذه القتلة المعروفة وأصله من الصليب وهو الودكُ. صَلَبَ اللحمَ: شواه فأساله أي الودكَ منه. صَلَبَ العظام: جمعها وطبخها واستخرج ودكها ليؤتدَم به. والصليب: الودك. وفي الصحاح: الصليب هو ودكُ العظام، وبه سُمّي المصلوب لما يسيل من

ودكه، والصَلب – هذه القِتلة المعروفة – مشتق من ذلك، لأن ودكه وصديده يسيل (تاج العروس).

التفسير: هنا ينشأ سؤال يقول: كان يوسف عليه السلام مجرد معبّر للرؤيا، فكيف ادّعى بأنه قد حُسم الأمر الذي تسألانّي عنه؟ والجواب: إن للتفسير أيضًا علاقة وثيقة بما سيتحقق ويحدث نتيجة الحلم. والواقع أنه لا يكون للرؤيا أهمية كبيرة قبل أن يقصها صاحبها. أما إذا حُكِيَت فعُبِّرت فإن الله تعالى يغار لها ويحققها كما عُبِّرت في معظم الأحيان. ولذلك قال الصوفية، بل وقد أشار الحديث النبوي الشريف إلى أن الرؤيا المنذرة يجب على الإنسان أن يتجنب ذكرها للآخرين (البخاري، التعبير). ولذلك نجد أن السجينَيْن لما ذَكَرا حلميهما، أخبرهما يوسف عليه السلام بتعبيرهما مؤكدًا أن الحلمين سوفَ يتحققان حتمًا.

وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٣﴾

شرح الكلمات:

بِضْع: البِضْعُ ما بين الثلاث إلى التسعِ (الأقرب).

التفسير: التمس يوسف عليه السلام من الفتى الذي أيقن بنجاته من العقاب أن يذكره عند الملك عندما يرجع إليه ويخبره أن يوسف مودع في السجن دونما ذنب. ولكن الفتى نسيَ التماس يوسف ولم يذكره عند الملك، وذلك لانشغاله بمشاغله الشريرة حيث كان يَسْقي الخمر للناس في البلاط.

قد فسّر البعض قوله تعالى ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ بأن الشيطان أنسى

يوسف أن يذكر ربّه ﷻ أي أن يقول: إن شاء الله. والحق أنه لم يكن هناك من داعٍ ليقول يوسف: إن شاء الله، كما لم يحدث منه هذا التقصير. بل قد جاءت كلمة (رب) في قوله: "ذكر ربه" بمعنى الملك كما جاءت أيضًا في قوله: (عِندَ رَبِّكَ). فلا داعي لأخذ كلمة (رب) هنا بمعنى الرب ﷻ، لنستدل بذلك أَنَّ يوسف عليه السلام تغافل عن ذكر الله ﷻ، بل المعنى الواضح البسيط هو أن هذا الفتى الناجي من السجن أنساه الشيطان ذكر يوسف عند سيده، أي الملك، بمعنى أنه بسبب الأعمال الشيطانية مثل شرب الخمر وتوزيعها زال عن الفتى التأثيرُ الطيب الذي تركته فيه صُحبةُ يوسف عليه السلام، فلم يفكر في يوسف و لم يذكره عند الملك كما وصّاه بذلك.

فبالرغم من هذا المعنى الواضح للآية، الذي يبرئُ ساحة يوسف من مثل هذا التقصير، لا داعي أن نأخذ بأي معنىً آخر يسيء إليه عليه السلام. وقد استخدم كلمة (ظنَّ) في قوله تعالى ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ﴾ لأن رؤيا الإنسان الذي ليس نبيّـــًا مهما كانت تحمل طابع اليقين إلا أنها لا تخلو من شائبة الشك، فلذلك يعبَّر عنها بالظن. إنما هم الأنبياء فقط الذين يستطيع الإنسان أن يحلف عن وحيهم أنه حق وصدق. وهذا أحد الفروق الهامة بين وحي الأنبياء وغيرهم.

وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾

شرح الكلمات:

عِجاف: عجِفت الشاة عجَفًا: ذهب سِمنها وضعُفت. وعجِفت البلاد: لم تُمطَر.

ومنه نزلوا في بلاد عجافٍ أي غير ممطورة. عجِف الحَبُّ: لم يربُ. والعجَف: الهزال. والأعجف: المهزول. وهي عجفاءُ وجمعه عجافٌ (الأقرب).

تعبُرون: عبرَ السبيل عبورًا: شقّها أي مرَّ كأنه شقّها وقطعها. عبر بفلان الماءَ: جاز. عبر الكتابَ: تدبّر في نفسه ولم يرفع صوته بقراءته. عبّر الرؤيا عبرًا وعبارة: فسّرها وأخبر بآخر ما يؤول إليه أمرها (الأقرب).

أفتنا: أفتاه العالم في مسألة: أبان له الحكم فيها وأخرج له فيها فتوى (الأقرب).

التفسير: يبدو أن فرعون كان موقنًا إلى حد بعيد بصدق الرؤيا التي رآها، ولذلك لم يكتف بسؤالهم عن تأويلها، بل قال:أخبروني ماذا تقترحون عليّ فعله إن كنتم تفهمون. وهذا يعني أن الله تعالى أراه الرؤيا بوضوح وهيبة بحيث تركت في قلبه وقعًا عظيمًا جعله يصدقها ويسعى للنجاة من عواقبها المنذرة، إذ لولا هذا التأثير العميق للرؤيا في قلبه لما ذكرها لحاشيته، وبالتالي لم تتهيأ الأسباب للإفراج عن يوسف عليه السلام.

قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾

شرح الكلمات:

أضغاث: الضِغْثُ من الخبر والأمر: ما كان مختلطًا لا حقيقةَ له. هذه أضغاثُ أحلام: أحلامٌ ملتبسةٌ لا يصحّ تأويلها (الأقرب).

أحلام: الحُلْمُ ما يراه النائم في نومه، لكنه غلب على ما يراه من الشر والقبيح كما غلبت الرؤيا على ما يراه من الخير والحسن، وربما يُستعمل كلّ مكانَ الآخر. جمعه أحلام (الأقرب). وورد في "مجمع البحار": "الرؤيا من الله والحُلم من الشيطان، فهما ما يراه النائم، لكن غلب الرؤيا على الخير والحُلُمُ على الشر والقبيح. ورد في

الحديث: "الرؤيا من الله والحُلم من الشيطان" (البخاري، التعبير).

ليس المراد من الحديث الشريف أن الله تعالى لا يُري الأحلام المنذرة، بل معناها أن أحدًا لو رأى الأحلام المنذرة معظم الأحيان، فليعلم أنها من الشيطان وليست من الله تعالى، لأن رحمته غالبة على غضبه، ومن رأى الأحلام المبشرة عمومًا فليعلم أنها من الله تعالى، لأن كفة الرحمة الإلهية راجحة في أحلامه.

والمعنى الثاني للحديث هو أن مصدر الحلم أي ما يراه من شر هو الشيطان، وأن مصدر الرؤيا أي ما يراه من خير هو الله تعالى؛ أو بمعنى آخر أن سبب العذاب والشر هو الشيطان، وسبب الخير والفضل هو الله تعالى، فإذا رأى أحد في المنام عمومًا ما يسوءه وينذره فليعلم أنه على علاقة مع الشيطان فليُصلِح حالته، وأما إذا رأى ما يسرّه ويبشّره فليَعلَم أنَّ الله تعالى راضٍ عنه ويريد الإنعام عليه، فيجب أن يزداد خيرًا وصلاحًا.

التفسير: قالوا إنها أحلام مختلطة، فيها الحق وفيها الباطل، ومشوبة بشوائب حديث النفس، ولا يمكن اعتبارها من الله بشكل كامل، ولا نستطيع تعبيرَ مثل هذه الأحلام إذ لا يمكن الجزم في حكمها.

وقولهم ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ﴾ لا يعني أننا لا نستطيع تأويل الأحلام المنذرة بل جاءت "الأحلام" هنا معرّفةً بـــ "ال" للمعهود الذهني إشارةً إلى أضغاث أحلام التي مرّ ذكرها. والمراد أننا لا نقدر على تأويل هذه الأحلام التي قد اختلط فيها الحق بالباطل.

وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ

شرح الكلمات:

ادّكَرَ: أصله اذتكَرَ (الأقرب).

أُمّة: الأمّة:الحين (الأقرب) وقوله تعالى ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي بعد حينٍ. وقد قُرئ بعد أمَهٍ أي بعد نسيانٍ، وحقيقةُ ذلك: بعد انقضاء أهلِ عصرٍ أو أهل دينٍ (المفردات).

التفسير: يبدو من قوله (فَأَرْسِلُونِ) أنه لم يكن من أعيان القوم الذين خاطبهم الملك. فعندما لم يقدر هؤلاء على تأويل حلمه، وتهرّبوا من الإجابة عن سؤاله بقولهم: إنها أضغاث أحلام، تذكَّرَ هذا الفتى قصة ما رآه هو وصاحبه في السجن من أحلام، وقال في نفسه: إن أحلامنا أيضًا كانت تبدو أضغاث الأحلام، ولكن يوسف ذكر لها تأويلاً معقولاً تحقق فيما بعد تمامًا، فلربما يذكر يوسف تعبيرًا لرؤيا الملك أيضًا. فاستأذن حاشيةَ الملك أن يرسلوه إلى يوسف ليعرف منه التأويل.

ولا غرابة في سؤال الملك حاشيتَه عن تأويل الرؤيا، إذ كان للكهّان ورجالات الدين عندئذ نفوذ في البلاد وحظوة في البلاط.

ويجب أن نتذكر هنا أمرًا لطيفًا: لا شك أن النجاح كان حليفًا لكلٍّ من يوسف عليه السلام والنبي ﷺ، ولكن هناك فارقًا أيضًا. كان نجاح يوسف عليه السلام مقدرًا بواسطة الآخرين لذلك قدّر الله أن يرى الملك تلك الرؤيا التي كانت سببًا في رقي يوسف عليه السلام، وأما النبي ﷺ فقد أراد الله له أن ينال الرّقيّ بطريق مباشر من لدنه تعالى، فلذا بشّره الله بالفوز عن طريق الوحي مباشرة، ولم يرضَ الله له أن يستعين بالناس وهو يرقى سُلَّم التقدّم والازدهار.

يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ

عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾

شرح الكلمات:

الصِدّيق: الكثيرُ الصدقِ؛ الدائمُ التصديق؛ الكاملُ فيه؛ الذي يصدّق قوله بالعمل (الأقرب).

التفسير: هنا تساؤل: لماذا يقول هذا الفتى بعد أن قصّ الرؤيا على يوسف: لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون، مع أن يوسف ما كان ليجبره على المكوث معه في السجن؟ الجواب: إن كلمة (لعل) قد جاءت هنا لبيان الطمع وليس الشك، وهي تشير هنا إلى ما يطمع فيه المخاطَب "أي يوسف"، والمراد: أنني إذا رجعت إليهم بالتأويل فسوف يعترفون بعلمك وفضلك وسوف ينكشف عليهم أنك بريء مما رُميتَ به.

كما أن الفتى يريد بقوله هذا تبرئة ساحته هو أيضًا، فكان وَعَدَ يوسفَ عليه السلام أن يذكره عند سيده أي الملك بعد إطلاق سراحه من السجن، ولكنه لم يفِ بوعده، لذلك يقول له الآن (لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ) أي أنني لو ذَكَرتك عند الملك قبل هذا لم ينفع شيئًا، لأن الظروف لم تكن مواتية لذلك، ولكني وجدت الآن الفرصة لتبرئة ساحتك فجئتك على الفور.

المماثلة الثالثة عشرة: وهي أن الله تعالى كما نبّأ في زمن يوسف عليه السلام بوقوع القحط والمجاعة لِسبع سنين، كذلك أخبر النبي ﷺ بسنين كسِني يوسف، حيث جاء في الحديث الشريف عن عبد الله بن مسعود:"كان هذا لأن قريشًا لما استعصوا على النبي ﷺ دعا عليهم بسنين كسِني يوسف. فأصابهم قحطٌ وجَهدٌ حتى أكلوا العظام، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجَهدِ. فأنزل الله

تعالى:﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ يَغْشَى النَّاسَ ..﴾ قال: فأُتِي رسول الله ﷺ فقيل: يا رسول الله، استسقِ اللهَ لِمُضَرَ فإنها قد هلكت... فاستسقى فسُقُوا (البخاري، التفسير، سورة الدخان).

قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلا قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٨﴾

شرح الكلمات:

دَأَبًا: دأب في عمله: جدّ وتعِب واستمّر عليه (الأقرب)

فذَروهُ: ذَرْهُ أي دَعْه، يقال ذَرْهُ واحْذَرْهُ. وتقول في المضارع: يَذَرُهُ أي يدعه، وأماتت العربُ ماضيَه ومصدره واسم الفاعل منه (الأقرب).

التفسير: المراد من قوله: (تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا) أنه لا مناص لكم من أن تزرعوا هذه السنين السبع بجد وتعب دون انقطاع حتى توفروا الغلال لسِني المجاعة والجفاف. أما إذا قصّرتم في الجهد أو تهاونتم في أخذ الحيطة في الاستهلاك، فلن تقدروا على تحمل وطأة المجاعة.

كما أخبرهم يوسف عليه السلام كيف يحفظون الغلال فقال: إذا تركتم القمح في سنابله كان أدعى لحمايته من الديدان والسوس. ولعله عليه السلام توصل إلى هذه الحيلة مما ورد في رؤيا الملك نفسها، حيث فكّر أن رؤيته السنابل مع البقرات ربما تتضمّن إشارةً إلى حفظ الحبوب في سنابلها.

ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلا قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٩﴾

شرح الكلمات:

شِداد: الشديد: البخيلُ؛ القويّ، جمعه شِداد. والشديدة مؤنث الشديد وجمعها شدائد (الأقرب).

تُحصِنون: حصُنَ حصانةً: مَنُعَ، وحصُنت المرأة حُصنًا وحَصانةً: كانت عفيفةً، وأحصَن: منع (الأقرب).

التفسير: أي ثم تأتي أيام القحط تَستَهلكون فيها كل ما ادخرتموه من حبوب وغلال إلا قليلاً. وقوله ﴿إلا قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ يعني أنكم ستضطرون حتمًا لتوفير بعض الغلال. وهذا الاضطرار يتمثل في توفير بعض الحبوب، إبقاءً على البذر للمرة القادمة، أو خوفًا من أن تمتد المجاعة مدة أطول.

ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٥٠﴾

شرح الكلمات:

عامٌ: العامُ: السنةُ. وفي المصباح: لا تفرّق عوام الناس بين العام والسنة يجعلونهما بمعنىً، فيقولون لمن سافر في وقت من السنة أي وقت كان إلى مثله عامٌ، وهو غلطٌ، والصواب: السنةُ من أي يوم عددته إلى مثله، والعامُ لا يكون إلا شتاءً وصيفًا

(الأقرب).

يُغاثُ: غاثَ الله البلادَ يغيثها غيثًا: أنزل بها الغيث أي المطرَ. وغاثَه يغوثُ غوثًا: أعانه ونصره. وأغاثَنا الله بالمطر: كشَفَ الشدة عنّا به (الأقرب).

يعصرون: عصَر فلانًا: أعطاه العطية (الأقرب).

التفسير: لقد اعترض القساوسة على هذه الآية قائلين: إن خِصب الأراضي المصرية لا يتوقف على مياه الأمطار وإنما على فيضان النيل، ولكن القرآن يقول هنا: سوف ينتهي الجفاف ومعاناة الناس بنزول الأمطار، مما يعني أن من أنزل القرآن كان جاهلاً حتى بهذه المعلومات الجغرافية البسيطة (ترجمة القرآن لرودول).

والجواب: لقد استخدم القرآن هنا كلمة (يغاث الناس)، و(يُغاثُ) فعل للمضارع المجهول إما مِن (غاث، يغوث) بمعنى إنزال المطر، أو مِن (غاث، يغوث) بمعنى (النُصرةُ)، أو من (أغاث، يُغيثُ) بمعنى النجدة. فالمراد من قوله تعالى ﴿يُغَاثُ النَّاسُ﴾ أنهم (١) يُمطَرون،(٢) يُنصرون (٣)، يُنْجَدون، أي يفرَّج عنهم كروبهم. فقولهم بأن القرآن يقصد هنا نزول المطر في مصر مغالطةً منهم للناس. فما دامت الكلمة تفيد معاني أخرى أيضًا فلماذا لا يأخذون بها ويصرون على هذا المعنى. فجوابنا الأول: إن الآية لا تخبر بنزول المطر في مصر وإنما تعني أن الناس سوف ينصرون أو يُنجدون وتفرَّج عنهم كروبهم وآلامهم.

ولو قيل: لماذا استخدم القرآن كلمة غامضة؟ فالجواب: إنه ليس فيها أي غموض ولا إشكال. فما دامت تفيد هذا المعنى أيضًا فلماذا لا يستخدمها القرآن.

ثم هناك حكمة أخرى في استخدام الكلمة ذات المدلولين ألا وهي أن القرآن حين قَصَّ ما حدث في مصر في زمن يوسف عليه السلام قد قصد به أيضًا أن ينبئ عمّا سيقع في زمن النبي ﷺ، إذ كان من المقدر أن يرى العرب مجاعة مشابهة في زمنه ﷺ أيضًا. ولكن بفارق واحد ذلك أن الله تعالى قدّر رفع القحط في زمن يوسف عليه السلام بفيضان النيل، وأما الذي كان في عصر النبي ﷺ فرفعه سبحانه بالأمطار. وهكذا استخدم

القرآن -الذي كل كلمة فيه مليئة بالحكم- كلمةً تنطبق على العصرين معًا. فأحد معانيها، وهو الإغاثة وتفريج الكروب، ينطبق على ما حدث في زمن يوسف عليه السلام، بينما المعنى الآخر، وهو إنزال المطر، ينطبق على زمن النبي ﷺ. وهذا الأسلوب القرآني اللطيف دليل على عظمة القرآن وفضله وليس بمنقصة فيه.

أما إذا أخذنا الكلمة بمعنى إنزال المطر فهذا أيضًا لا يقدح في عظمة القرآن أبدًا، لأن الآية لا تقول بأن المطر سيترل على أهل مصر، وإنما تقول إن المطر سيترل لأجل الناس. لا شكَّ أن نَضارة الأراضي المصرية ترجع إلى فيضان النيل لا إلى نزول المطر فيها، إلا أن فيضان النيل إنما يتوقف على الأمطار التي تهطل في المناطق التي هي منابع النيل بعيدًا عن مصر. إذن فلا يستقيم اعتراضهم بأي حال من الأحوال.

وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾

شرح الكلمات:

بال: البال: الحالُ؛ القلبُ (الأقرب). والبال: الحال التي يُكترثُ بها ولذلك يقال: ما باليت بكذا بالةً أي ما اكترثتُ به. وقال الله تعالى:﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾، وقال ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ أي حالهم وخبرهم. ويعبّر بالبال عن الحال الذي ينطوي عليه الإنسان فيقال: خطر كذا ببالي (المفردات).

التفسير: أراد الملك الإفراج عن يوسف عليه السلام بعد ما رأى أن الكهنة الذين هم على دينه قد فشلوا في تفسير رؤياه، بينما أتى يوسف عليه السلام بتأويل رائع مقرون بعلاج للمصيبة التي تنتظرهم، كما سمع الملك من ساقيه أنه سبق أن تحقق ما ذكره يوسف

من تعبير لما رآه هو وصاحبه في السجن من أحلام. ولكن حمية يوسف أبت أن يخرج من السجن إلا بعد أن تُبرَّأ ساحته مما رُمي به. ويبدو أنه عليه السلام فكّر في نفسه أنه لو خرج منه دون أن تُعلن براءته من التهمة فلربما يثير البعض القضية نفسها أمام الملك في المستقبل، فيصدّقهم. فالأفضل أن تُرفع إليه القضية الآن لكي يتحرى فيها ويطمئن، حتى لا يستغلها أحد للتآمر عليه فيما بعد.

ويبدو من قوله ﴿مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ أنه قد حدث فعلاً شيء ما يمكن أن نعتبره كقطع الأيدي، فإما أن إحداهن جرحت يدها بالسكين حقًا، أو أنهن ما لبثن أن قلن عندئذ: لقد قطعنا أيدينا باهتمامنا هذا الشخصَ، وإلى حادث الجرح هذا أو إلى هذا القول منهن يشير يوسف عليه السلام بقوله ﴿اللاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾. أما لو كان القرآن يقصد بقوله ﴿أَكْبَرْنَه وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ التعبيرَ عن شدة حَيرتهن فقط، لما وصفهن يوسف بقوله ﴿اللاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾.

أود أن أذكر هنا كلمة حكمةٍ لا يتذكرها الناس عمومًا، ألا وهي أن اعتبار العمل حسنًا أو سيئًا يتوقف على اختلاف وجهات النظر. فأحيانًا يكون هناك أمران متعارضان تمامًا فيما يبدو، ولكن باختلاف زاوية النظر إلى كل منهما ينقلب هذان الأمران إلى حسنتين أو سيئتين. وما فعله يوسف عليه السلام أيضًا يندرج تحت هذا القبيل من الأفعال. فعندما دعاه الملك كان أمامه خِياران اثنان فقط: إما أن يخرج من السجن دون تردد، أو أن يُثبت براءته أولاً ثم يخرج. وهذان أمران متعارضان في الظاهر، ولكن يمكن اعتبار كل واحد منهما حسنًا أو سيئًا بتغيير زاوية النظر إليه.

ذلك أنه عليه السلام لو امتنع عن الخروج من السجن بسبب الغطرسة والزَهْو قائلاً: لن أخرج منه ما لم يعترف القوم بخطئهم لعُدَّ عمله هذا معصيةً. كذلك لو أنه خرج من السجن على الفور مؤْثرًا راحةَ نفسه على مصلحةٍ دينية، لكان هذا إثمًا. ولكن الواقع أنه عليه السلام لم يرفض الخروج من السجن استكبارًا وتعاليًا، وإنما سببه- كما ذكره هو نفسه- ألا يتوهم سيده أنه خانه في أهله أثناء غيابه. هكذا فإن نيته الطيبة جعلت

رفضه من أفضل الأعمال الصالحة.

ولكن هناك زاوية نظر أخرى تجعل خروجه الفوري من السجن من أفضل الأعمال، وهي النظر إلى أهمية أداء الواجب. ذلك أن النبي مأمور أن يبلغ الناس رسالة الله، ومهمّته هذه تفرض عليه أن يضحي في سبيل ذلك بكل غالٍ ورخيص حتى بكرامته وشرفه. أما لو بقي النبي مسجونًا فإما أنه لن يقدر على تبليغ رسالة الله أو أن نطاق دعوته يكون محدودًا وضيقًا جدًا. فلو نظر يوسف عليه السلام من هذا المنظور وخرج من السجن دون تبرئة ساحته من التهمة، مُؤْثرًا أداء واجبه على الحفاظ على كرامته وشرفه، لكان ذلك تضحية عظيمة منه. ومن هذه الزاوية نظر الرسول الكريم ﷺ إلى حادث يوسف عليه السلام حيث فَضَّل الخيار الثاني قائلا: "لو لبثتُ في السجن ما لبث يوسف لأجبتُ الداعي" (البخاري، الأنبياء). وفي رواية عن أبي هريرة رضي الله عنه: "لأسرعتُ الإجابة وما ابتغيت العذرَ" (مسند أحمد ج ٢ ص ٣٤٦).

وكل عاقل يدرك أن ما يفضّله النبي ﷺ هو الأفضل، إذ لا جرم أن حفاظ الإنسان على كرامته وشرفه عملٌ حسنٌ عظيم، ولكنه لو ضحّى به لوجه الله تعالى، معرِّضًا نفسه للاتهام والطعن، بغيةَ تبليغ رسالة الله، أو لتحقيق مصلحة دينيةٍ أو قوميّة لكان أفضل من أن يهتم أولاً بالحفاظ على شرفه وكرامته، ولو بنيّة طيبةٍ.

قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾

شرح الكلمات:

خطبكنَّ: الخطبُ: الشأنُ؛ الأمرُ صغُر أو عظُم؛ سببُ الأمر، يقال: ما خطبك أي ما شأنك الذي تخطُبه وما الذي حملك عليه (الأقرب). والخطبُ: الحالُ؛ الأمرُ الذي يقع فيه المخاطبة (التاج).

حَصْحَص الحق: بان بعد كتمانه (الأقرب).

التفسير: يبدو أن الملك عندما سمع التفسير الذي ذكره يوسف عليه السلام أيقن على الفور بطهارته وورعه، وأدرك -حتى من قبل الفحص والتحري- أن التهمة الموجهة إليه باطلة، ولذلك خاطب النسوة وقال: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ﴾. كما يتضح من الآية أنهن اشتركن فيما بعد مع امرأة العزيز للتآمر على يوسف ليقع في فخها، لأن قول الملك هذا يوحي بأن خبر الحادث كان قد بلغه. ولكن الأكيد أن النساء لم يراودنه لأنفسهن وإنما لامرأة العزيز. فربما قالت له النساء: عليك بالرضوخ لرغبتها وإلا سوف تلقيك هي وراء قضبان السجن. أمّا لو كن يحاولن مراودته لأنفسهن لكان القرآن صرَّح بذلك.

ويبدو من قول الملك أن هذا الحادث كان جزءاً من الحادث السالف نفسه، وأن النسوة أدركن عندما خاطبهن الملك بهذا الأسلوب أنه سوف يؤيد يوسف في موقفه، وأن إخفاء الحق أكثرَ من ذلك سوف يعرّضهن للخطر، فأتين بالحق، ولكن بكلمات تبرئ ساحة يوسف وفي الوقت نفسه لا تعرِّض امرأة العزيز لأي اتهام. أما هي فأصابها الفزع وأدركت أن الفضيحة موشكة، وأنهن سوف يكشفن سرها الآن، فعليها أن تبادر بالاعتراف بجريمتها هي بنفسها لتنجوَ من العقاب الذي قد يتزله الملك بها، فقالت دون أن يسألها الملك: ﴿الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٣﴾

شرح الكلمات:

لم أخُنْه: خانه في كذا يخونه خونًا وخيانةً: اؤتُمن فلم ينصح. خان العهدَ: نقضه، يقال: خانه العهدَ والأمانة أي في العهد والأمانة، فهو خائن (الأقرب).

لا يهدي: الضلال فقدُ ما يوصِل إلى المطلوب، وتضادُّه الهداية (التاج). فالهداية معناها أن تتيسر للإنسان الأسباب إلى الغاية، ثم أن يصل بها إلى الهدف.

وقوله تعالى ﴿وَأَنَّ اللّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ أي لا ينفّذه ولا يصلحه (التاج).

التفسير: لقد اختلف المفسرون في تعيين صاحب هذا القول فَنَسَبَهُ البعض إلى امرأة العزيز، حيث قالت: لم أخن يوسف في غيابه. ولكن هذه الكلمة لا يمكن أن تتفوه بها تلك المرأة، لأنها كانت قد خانت بالفعل، ولذلك أؤيد من قال إن هذا من كلام يوسف، والمعنى: لم أخدعه و لم أخفِ عنه شيئًا، إذ كان من المحتم أن تُرفع القضية إلى الملك في يوم من الأيام، فيظن أني خدعته، بإخفاء حقيقة أمري عنه لأتبوأ هذا المنصب.

وقد يكون الضمير في (لِيَعْلَمَ) عائدًا على الملك، والضمير في (لَمْ أَخُنْهُ) عائدًا على العزيز، والمراد: ليعلم الملك أني لم أغدر بالعزيز الذي أحسن إليّ، لكي لا يظن أن هذا الذي قد غدر بمن أحسن إليه ربما يغدر بي أيضًا. ويبدو أن الله تعالى أخبر يوسف عليه السلام بالوحي أنه سوف يتقلد منصبًا عند الملك، فلذلك قام بتبرئة ساحته من الخيانة لكي لا يتهمه أحد بها أثناء وزارته للملك.

وأما قوله تعالى ﴿وَأَنَّ اللّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ فليس المراد منه أن جميع الخائنين لا يفلحون، لأن الخائنين وردت هنا معرَّفةً بـــ "الـــ" التي هي للمعهود بالذكر، أي الخائنين الذين مرّ ذكرهم، ممن يعارضون عباد الله المصطَفين. والمراد أن هؤلاء الخونة الذين أساءوا إلى يوسف الذي اختاره الله لمهمة خاصة لا يمكن أن

يفلحوا. فكم من خائن يقوم بأعمال الخيانة وينجح فيها، ولكن الذين يرتكبون الخيانة ضد من يصطفيهم الله لمهام عظيمة، لا يَدَعُ الله خيانتهم خفيةً، بل يهتك سترها ويفشلهم فيها.

وقد تكون (يَهْدِي) بمعنى (ينصر) وتعني الجملة أن الله لا ينصر الخائنين. ذلك أن الله تعالى أيد يوسف ونصره بشكل خاص، إذ أَرَى الفتيين ثم المَلِكَ رؤىً كانت سببًا في رقيه، فيوسف يقدم هذا التأييد الإلهي ضد خصومه كدليل على براءة ساحته ويقول: إنه تعالى لم ينصرني بدون سبب، بل كنت على حق، فلذلك أيدني ونصرني.

وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلا مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾

شرح الكلمات:

أمّارةٌ: الأمّار: الكثيرُ الأمر ومؤنثه أمّارة (الأقرب).

السوء: كل ما يغُمُّ الإنسان من الأمور الدنيوية والأُخروية ومن الأحوال النفسية والبدنية والخارجة من فوات مالٍ وجاهٍ وفقد حميم (المفردات).

التفسير: ما أشدَّ ما تكون فطرة الأنبياء نقاءً وصفاءً. فيوسف عليه السلام يصرّح هنا بأني لم أقصد بذلك التظاهرَ أمام الناس بصلاتي وطهارتي، وإنما فعلت ذلك لأكشف لهم أن الله وحده هو المنزه من كل نقص وعيب، وأنه لا يَدَع الخائنين الذين يناصبون رُسُلَهُ العداء لينجحوا في مكائدهم. فلم أفعل ما فعلته تعاليًا وتباهيًا، وإنما لإظهار عظمته وجلاله سبحانه وتعالى، ولأبين للناس أن من يتولّى الله عصمتهم وحمايتهم لا يقدر أحد على إلقائهم في المعصية. أما فيما يتعلق بنفسي فإنني معترف بأن النفس

البشرية لا تقدر على شيء دون رحمة الله، أي دون شرعه وهديه وفضله ﷻ، بل إنها لا تنفك تأمر صاحبها بالسوء مرة بعد أخرى، وإنما هو نور الإلهام والوحي الذي يأخذه إلى الصراط المستقيم.

لقد صرّح القرآن في موضع آخر: ﴿الرَّحْمَنُ ۞ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ أي أن كلام الله تعالى إنما يتزل بسبب صفة الله الرحمن. فقوله ﴿إلا مَا رَحِمَ رَبِّيَ﴾ إشارة إلى الرحمة الإلهية. والمعنى أن الفطرة الإنسانية إذا لم يصحبها الوحي الإلهي تصبح كمن يمشي على قمة جبلٍ في ليلة حالكة السواد، فتبقى الفطرة محاصرةً بأنواع الأخطار وترتكب خطأً تلو خطأ. أما إذا طلعت عليها شمس الوحي فعندئذٍ فقط تنفعها عيونها الباطنية.

ولقد ذكر القرآن الكريم حالتين أُخريين للنفس البشرية؛ الأولى النفس اللوّامة حيث قال ﴿وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ (القيامة ٣). والثانية النفس المطمئنة المذكورة في قوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۞ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ (الفجر ٢٨ و٢٩). فالمراد من "النفس الأمارة بالسوء" الحالة البدائية للنفس البشرية عندما لا تكون قد ذاقت طعم الوحي الإلهي، ولا تكون وارثة لفضله ﷻ.

واعلم أن الآية لا تعني أبدًا أن النفس البشرية تعلّم صاحبها السوء والشر دومًا، لأن القرآن قد دحض هذا الزعم في نفس هذه الآية بقوله: ﴿إلا مَا رَحِمَ رَبِّيَ﴾، كما وليس المراد منها أن الإنسان يولد آثمًا، إذ ليس الحديث عن ولادته، وإنما عن حالته بعد الولادة عندما تعلق به شوائب الدنيا الدنية. أما حالته عند الولادة فقد وصفها الله قائلاً: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾.. أي أننا نُقسم بالنفس وبما خلقناها عليه من جمالٍ وكمالٍ. فالواقع أن الله تعالى قد خلق نفس الإنسان بفطرةٍ بريئةٍ من أي عيب وإثم، ولكنه عندما يأتي إلى الدنيا يُلوّثها بتأثير الآخرين، أما إذا لم يعرّضها للتَلَوُّث تبقى بريئة سليمة من العيوب والنقائص. وبالاختصار فإن الآية لا تذكر حالة نفس الإنسان عند ولادته، وإنما تتحدث عمّا تكون عليه بعد أن تشوبها شوائب الدنيا.

أما قوله ﴿إلا مَا رَحِمَ رَبِّيَ﴾ فتقديره: إلا النفس التي رحمها ربي فإنها لا تأمر

بالسوء.. أي النفس المطمئنة التي لا تأمر بالسوء أبدًا. أو تكون (ما) بمعنى (من) والمراد إلا الذي يرحمه الله؛ أي أن الذين يرحمهم ربُّهم لا ينصاعون لنفوسهم الأمارة، أما غيرهم فيقعون فريسة لهجماتها. أو أن تكون (إلا) استثناء منقطعًا، و(ما) مصدرية، والمراد أن الله ينقذ برحمته من يشاء. فكأن هذه المعاني الثلاثة تشير إلى ثلاث درجات يحوز عليها الناس:

أولاً: مَنْ تتطهر نفوسهم كلية فلا تأمرهم بالسوء أبدًا، وهم أصحاب الدرجة العليا.

وثانيًا: من ليسوا كمثلهم، وإنما تأمرهم نفوسهم بالسوء، لكنها لا تتغلب عليهم، وهم الحائزون على الدرجة الوسطى.

وثالثًا: من كانوا أدناهم درجةً، وهم الذين تأمرهم نفوسهم بالسوء كثيرًا، فيخضعون لها، إلا أن رحمة الله الواسعة تتداركهم وتأخذ بأيديهم إلى التوبة والخلاص.

أما قوله ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فصرّح به يوسف إنما أنا عبدٌ لرب غفور رحيم، ومن واجبي أن أستر ذنوب الناس وأغفر لهم، ولكن القضية هنا كانت تمسُّ بعظمة الله وجلاله ولذلك لم أستطع السكوت.

وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٥﴾

شرح الكلمات:

أستخلصْه: استخلصَ الرجل: اختصه بدُخْلِله (أي بسريرته). واستخلص الشيء: اختاره. (الأقرب)

مكين: مكُن فلانٌ عند السلطان مكانة: عظُم عنده وارتفع وصار ذا

مترلة.(الأقرب)

التفسير: لقد وجّه الملك بقوله هذا تأنيبًا لطيفًا للعزيز الذي كان يوسف في بيته، وكأنه يقول له: لِمَ لَم تُقدِّر هذا الشخص العظيم حق التقدير، فالآن سوف أقربه مني لينال حقه من التقدير والتكريم.

وكان هذا التقدير من الملك قبل اللقاء بيوسف، ولكنه عندما اجتمع به أُعجب به أكثر من ذي قبل، فقال له: ستحظى بمترلة خاصة في بلاطي.

كما طمأنه بقوله: ﴿أَمِينٌ﴾ أي أنني لم أشُك قط في أمانتك، كما سنثق بك كل الثقة في المستقبل أيضًا.

لقد ورد في التوراة أن الملك قال ليوسف: أنه سَيَهَب له كل شيء إلا كرسيه وتاجه، وأعطاه المركب التالي لمركبه، وأعلن في البلاد: أنه الحاكم الثاني عليها. (التكوين٤١: ٤٠).

قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٦﴾

التفسير: فكّر يوسف عليه السلام أنه إذا صار رئيس وزراء الملك فسوف يقع في المشاكل كلّ يوم، وكذلك إذا تولّى غيرُه منصب وزارة المالية فقد يحسده هذا ويفسد الأمور الاقتصادية للبلاد عمدًا ليلقي باللائمة على يوسف ويقول: كان تعبير يوسف لرؤيا الملك باطلاً، ولذلك كلّه أعرب يوسف للملك عن رغبته في أن يباشر بنفسه الإشراف على اقتصاد البلاد وخزينتها.

وهنا درسٌ يمكن أن نتلقّنه من قول يوسف عليه السلام هذا، ألا وهو أنه إذا قام أحد بدراسة وتخطيط مشروع من المشاريع وكان أهلاً لتنفيذه فهو الأحق والأفضل للإشراف عليه ويجب أن يُعهدَ تنفيذُه إليه.

لقد اعترض البعض قائلاً: ليس من المستحب أن يطلب الإنسان منصبًا من المناصب، فلماذا طلب يوسف عليه السلام هذا المنصب؟ والجواب أنه لم يسأل منصبًا في الواقع، وإنما تنازل عمّا استحقه لأن الملك كان يريد أن يقلّدَه منصب الوزارة العظمى، ولكنه اعتذر قائلاً: أوَدُّ أن تسمح لي بالإشراف على ما يتعلق بالمجاعة التي تهددنا.

وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاء نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٧﴾

شرح الكلمات:

يَتبوّأُ: تبوأ المكان: اتخذه محلةً وأقام به (الأقرب).

أجر: الأجر: الثواب (الأقرب). الأجر والأُجرة ما يعود من ثواب العمل دنيويًا كان أو أخرويًا نحو قوله تعالى:﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى اللَّهِ﴾ وقوله تعالى ﴿آتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾ (المفردات).

التفسير: لقد ذكر الله تعالى هنا تمكينَ يوسف في الأرض وكذلك في الآية رقم (٢٢)، ولكنه أردفه هنالك بقوله: ﴿لِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ إشارةً إلى أنه كان عليه عندئذ أن يمر بالمحن والاختبارات ليُسبَر غورُه، أما هنا فقد قال بعد ذكر التمكين ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء﴾ ليبين أن زمن اختباره قد مضى وانتهى، فقد وهبنا له العزة ولن يتعرض بعدها لأي محنة، بل سوف يعيش دائمًا في ظل رحمتنا ونعمتنا.

ثم قال: ﴿وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي أن من كان محسنًا إلى الخلق لا يضاع أجره، وذلك كقوله تعالى ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾ (الرعد : ١٨).

ولكن كلمة (الْمُحْسِنِينَ) هنا قد تكون بمعنى خاص، أي المقرَّبون إلى الله الذين لهم صلة خاصة بربهم ﷻ. فقد ورد في الحديث الشريف عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ سُئل: ما الإحسان؟ قال: أن تعبد ربك كما ينبغي. وفي رواية أن شخصًا سأل النبي ﷺ عن الإحسان فقال: "أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك". (البخاري، الإيمان)

المماثلة الرابعة عشرة: كما أن إخوة يوسف عليه السلام بدءوا يحسدونه على ما كان يرى من مستقبل باهر عظيم، فطردوه من البيت ليُذل ويُخزى، ولكنّ الله أكرمه إكرامًا عظيمًا، كذلك قام الأعداء بطرد النبي ﷺ من وطنه ليرى الخزيَ والهوان، ولكن الله تعالى زاده في المدينة عزًا وشرفًا.

إلا أنَّ هناك فارقًا، وهو أن العزة التي نالها يوسف عليه السلام لم تكن بطريق مباشر بل بواسطة الملك، أما النبي ﷺ فكرّمه الله تكريمًا مباشرًا، إذ آتاه حكومة مستقلة وجعله ملكًا على العرب. وهذا الفرق نفسه يوجد بين النبيين الكريمَين -عليهما السلام- مكانةً ومقامًا.

وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٨﴾

التفسير: أي أننا نتفضل عليهم بنعم الدنيا أيضًا لكي يعرفوا أن الله لا يَدَع أنبياءه وأولياءه يذلّون ويخزون، ولكن الأجر الحقيقي هو ما يكون في الآخرة، لأنه أفضل من نعم الدنيا كلها.

وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٩﴾

شرح الكلمات:

دخلوا عليه: دخل البيت: ضدُّ خرج، ودخل على فلان: زاره (الأقرب).

منكرون: أنكره: جهِله (الأقرب).

التفسير: قال المفسرون في قوله تعالى﴿فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ أنهم لم يعرفوا يوسف لأنهم طردوه عندما كان صغيرًا، أما الآن فكانت لحيته قد نبتت وهيئته قد تغيرت (تفسير الرازي).

ولكني أرى أن هذا ليس مما يستحق الذكر في القرآن الكريم، بل هو إشارة إلى ما قال إخوته عند التآمر عليه: ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾. فكانوا يظنون أنهم إذا طردوا يوسف من بينهم فسوف يزدادون عزةً. ولكن ما حدث هو العكس، إذ ارتقى يوسف في سلم المجد والشرف سريعًا خلال فترة الغياب هذه، بينما لم يُكتب لهم أي رقي ولا أي ازدهار، فما استطاعوا أن يعرفوه.

المماثلة الخامسة عشرة: فكما أن إخوة يوسف عليه السلام لم يصدّقوا ما ناله من عز وشرف، كذلك انبهر قوم النبي ﷺ مما حقّقه من رقي وازدهار. فعندما بَعث النبي ﷺ الرسائل إلى الملوك وصلت رسالته إلى هرقل الإمبراطور الرومي بالشام، فتحيّر من قراءتها وسأل حاشيته: من هذا الذي يخاطبني بهذه الشجاعة؟ قالوا: هذا رجل من العرب يزعم أنه نبي. فأمرهم بالتحري عن أحوال النبي ﷺ. وتزامن ذلك وجود أبي سفيان بالشام في ركب من تجار قريش، فأُحضر هو وأصحابه إلى مجلس الملك. وعندما عرف هرقل أن أبا سفيان زعيمهم قرّبه إليه وقال مخاطبًا أصحابه: إني سائل هذا عن ذلك الرجل، فإن كَذَبَني فكذِّبوه على الفور. ثم سأله عن النبي ﷺ عدة أسئلة هامة، ولا يزال حوارهما يمثّل آية عظيمة خالدة على صدقه ﷺ. ومما سأله: هل كان

أحدٌ من آبائه ملكًا حتى يقال: رجل يطلب مُلك أبيه؟ قال أبو سفيان: لا. قال: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال:لا. قال: فهل يغدر عهدًا؟ قال: لا، ولكننا في مدة (أي فترة هدنة وصلح) لا ندري ما هو فاعل فيها -ويقول أبو سفيان: هذا كل ما استطعت أن أدسّه ضد النبي ﷺ في حديثي مخافة أن يكذّبني أصحابي- فقال: أأشرافُ الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ قال: بل ضعفاؤهم. فقال هرقل: فإن كان ما تقوله حقًا فسيملك موضعَ قدميَّ هاتين. ذلك أنه كانت في الكتب السماوية أنباء بأن خاتم النبيين ﷺ سوف يفتح بلاد الشام. فحينما قال هذا: ارتفعت الأصوات عنده وكثر الصخب.

فخرجَ أبو سفيان من عنده وقال لأصحابه متعجبًا: لقد أَمِرَ أَمرُ ابنِ أبي كبشةَ! إنه يخافه ملِكُ بني الأصفر (البخاري، الوحي). أي لم نعرف عظمة محمد إلا الآن، فهو أعز وأكرم مما كنا نتصوره. وأبو كبشة كان رجلاً من خزاعة خالف قريشًا في عبادة الأوثان، وبدأ في عبادة النجوم، وكانوا ينسبون النبي ﷺ إلى أبي كبشة احتقارًا وازدراءً، حيث ترك دين آبائه، وكأنه ﷺ كان ابنًا روحانيًا لأبي كبشة.

وبالاختصار لم يصحُ هؤلاء القرشيون من سباتهم إلا بعدما رأوا ما رأوه في الشام، وبدونه ما كانوا ليفطنوا - وهم في مكة - للمكانة السامية التي كان النبي ﷺ حائزًا عليها. أما هو فكان يعرف قدرهم وحقيقتهم.

وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَاْ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٦٠﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ

لَكُمْ عِندِي وَلا تَقْرَبُونِ ﴿٦١﴾

شرح الكلمات:

جهّزهم: جهّز القوم تجهيزًا إذا تكلّف بجهازهم للسفر. وتجهيز الغازي: تحميله وإعداد ما يحتاج إليه في غزوه. وجِهاز الميت والعروس والمسافر: ما يحتاجون إليه (التاج).

الكيلُ:كال الطعامَ كيلاً واكتاله بمعنىً واحد. واكتالوا على الناس أي اكتالوا منهم لأنفسهم. قال ثعلب: معناه: من الناس، وقال غيره: اكتلت عليه: أخذت منه. يقال: كال المعطي واكتال الآخذ وكَالَه طعامًا وكَاله له. والكيل والمِكْيَل: ما كيل به حديدًا كان أو خشبًا. وكال الدراهم: وزنَها. كل ما وُزِنَ فقد كِيْلَ (التاج).

التفسير: تقول التوراة بأن يوسف عليه السلام ظن أن إخوته جواسيس وهدّدهم قائلا: "أحضِروا أخاكم الصغير إليّ فأعرف أنكم لستم جواسيس بل أنتم أمناء" (التكوين ٤٢: ٣٤). ولكن القرآن يخبرنا أنه عاملهم معاملةً طيبةً وشجعهم على الحضور بأخيهم في المرة القادمة.

من الممكن أن يوسف عندما وجّه إليهم أسئلة كثيرة عن أبيه وأفراد العائلة الآخرين ليطمئن عليهم، ظنّ إخوته أنه يشك فيهم ويعتبرهم جواسيس، وإلا فلا يليق بنبي أن يتّهمهم بالجاسوسية وقد عرف أنهم إخوته، لأن هذا نوعٌ من الكذب. فالرأي عندي أن التوراة قد نقلت الظن الناشئ في نفوس إخوته، وليس الأمر الواقع. ثم إنه من غير المعقول أن يعتبرهم يوسف جواسيس إذا لم يُحضروا أخاهم الصغير.

قَالُواْ سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦٢﴾

شرح الكلمات:

سنراود: (انظر شرح الكلمات للآية رقم ٢٤).

التفسير: إن السيئة الواحدة تولِّد سيئاتٍ أخرى. فعندما اتبع إخوة يوسف سبيل الإثم فَسُدَت أفكارهم وقبُح حديثهم. انظروا إلى جسارتهم الوقحة إذ قالوا: ﴿سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾، وكأنَّ يعقوب لم يكن أبًا لهم، فعقدوا العزم على خداعه وتسفيهه حتى يرسل معهم ابنه الصغير.

وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُواْ بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٣﴾

شرح الكلمات:

رِحالهم: الرِحال جمع رَحْل، والرحلُ مركبٌ للبعير أصغر من القتب. والرحل ما تستصحبه من الأثاث، وقد يُطلق على الوِعاء كالعِدل والجراب (الأقرب).

التفسير: تمسك يوسف عليه السلام بأهداب الصبر امتثالاً لأمر الله، مقاومًا الرقة الشديدة التي أخذت بمجامع قلبه برؤية إخوته بطبيعة الحال، إلا أن حبه الفطري دفعه ليُسدي إليهم معروفًا عند مغادرتهم، فردّ إليهم الثمن الذي دفعوه للصفقة.

وهذا لا يعني أنه عليه السلام خان في أموال الخزينة الملكية. كلاّ، فقد كان يوسف يتقلد منصب الوزارة، ولا يصعب على الوزير أن يردّ إليهم مالهم ويدفع الثمن من جيبه نيابةً عنهم.

هذا الحادث يكشف لنا أمرًا هامًا هو أن إصلاح الناس إنما يتأتّى بمعاملةٍ تكون ما بين الخوف والرجاء. فإنه عليه السلام خوَّفهم أولاً، والآن حبّبهم إليه بهذه الهدية لكي يرجعوا إليه في كل حال.

أما قوله تعالى ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا﴾ فليس المراد منه أن يعرفوا بضاعتهم إذ البضاعة كانت لهم وكان لا بدّ أن يعرفوها، بل ضمير (ها) راجع إلى معاملته الطيبة لَهُم وإلى معروفه الذي صنعه بهم.

المماثلة السادسة عشرة: لقد كان يوسف عليه السلام تواقًا للقاء إخوته مرة أخرى رغم كونهم أعداءً له، كذلك كان النبي ﷺ حيث خاطبه الله تعالى وقال: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء:٤). فعلى الرغم من علمه بما يكنّ له أهل مكة من عداءٍ شديد فإنه لم يُرد هلاكهم، بل كان يتمنى دائمًا وبكل شدة وقوة أن ينضموا إليه مؤمنين.

فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٦٤﴾

التفسير: سبحان الله! كان إخوته إلى ذلك الوقت مغرورين بقوتهم وأنانيتهم وما كانوا يتجهون إلى الله تعالى رغم ما ظهر لهم من ضعف أنفسهم. هكذا يصبح مَن يضعف فيه الإحساس بعظمة الدين، فإما أنه يبقى فريسة لوحش الكبرياء والغرور أو يركن إلى اليأس كليةً، ولا يسلك الطريق الوسط الذي لا كِبْر فيه ولا قنوط. كان إخوة يوسف إلى ذلك الوقت مصابين بهذا المرض، إذ يدل قولهم ﴿مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ على يأسهم البالغ، بينما يكشف قولهم ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ عن غرورهم بقوّتهم.

قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إلا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٥﴾

شرح الكلمات:

آمَنُكم: أمِن يأمَن أمنًا وأمانًا: اطمأن (الأقرب).

التفسير: هنا ينبههم يعقوب عليه السلام أن يوقنوا الآن على الأقل بأن حماية الله هي الحماية الحقيقيّة، فهو الذي يطهر باطن الإنسان من الأفكار النجسة وظاهرَه من الأعمال السيئة، وهو الذي يغفر له ما تقدم من ذنبه.

كما يوضّح لهم يعقوب أنه لم يرسل يوسف معهم من قبل عن ثقةٍ بهم، ولن يبعث الآن أخاه معهم معتمدًا عليهم، وإنما أرسله بأمر من الله ومتوكلاً عليه، وإن رأيه فيهم لم يتغير شيئًا. وها هو الآن أيضًا سيرسل أخاه إيمانًا منه أن هذه هي المشيئة الإلهية وهو المستعان وعليه التكلان.

وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٦﴾

شرح الكلمات:

نميرُ: مار فلانٌ عياله: أتاهم بميرة (أي طعام) (الأقرب).

التفسير: يبدو أن يوسف عليه السلام منح إخوته بعض المال كهدية منه زادًا لسفرهم علاوة على ما اشتروه.

ويمكن أن نستنتج من قولهم ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ أنهم سافروا على ظهور الجمال. كما ذكر القرآن في موضع آخر أيضًا كلمة (بعير) حين نادى المنادي ﴿نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاء بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ (الآية ٧٣). لكن التوراة تقول بأنهم جاءوا على الحمير حيث ورد فيها: "وأدخل الرجلُ الرجالَ إلى بيت يوسف، وأعطاهم ماءً، ليغسلوا أرجلهم، وأعطى عليقًا لحميرهم" (التكوين٤٣: ٢٤).

إنه لمن واجبنا لدى تفسير القرآن أن نلقي الضوء على هذه الاختلافات قدر الإمكان. لا شك أننا نحن المسلمين نفضّل ما ورد في القرآن على ما جاء في التوراة، ولكن يجب أن تكون في أيدينا أدلة أخرى لإقناع أهل الكتاب. وأرى أن أفضل سبيل لحسم هذه القضية أن ننظر إلى نوع المطايا التي كان يعقوب عليه السلام وعائلته يستخدمونها في رحلاتهم عمومًا. وعندما نرجع إلى التوراة نجد فيها الحديث عن سفر يعقوب عليه السلام عندما أخذ أهله من عند صهره حيث ورد فيها: "فقام يعقوب وحمل أولاده ونساءه على الجمال" (التكوين ٣١: ١٧). مما يؤكد أن يعقوب وعائلته كانوا يسافرون عادةً على الجمال. ونظرًا إلى هذه الشهادة من التوراة نفسها وإلى نوعية سفر إخوته إلى مصر حيث كان السفر على ظهور الجمال أكثر راحة وسهولة منه على الحمير.. يتحتم علينا عقليًا أن نقول بأنهم سافروا على الجمال.

ولكن هذا الشرح يرجع إلى افتراضنا بأن القرآن يقول بسفرهم على الجمال. أما الذي لا يرى استدلالنا هذا قويًا بالقدر الكافي، فيمكن أن يحل هذا الإشكال بطريق آخر، فيقول: إن القرآن لم يصرّح بأنهم سافروا على الجمال، وإنما يعني قوله ﴿كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ و﴿حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ أن هذا المال الإضافي كان يزن ما يحمله البعير، سواء وضعوه على ظهر جمل أو على متن حمار. وبهذه الصورة لا يبقى اختلاف بين بيان القرآن وما ذكرت التوراة.

قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إلا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٧﴾

شرح الكلمات:

يُحاطُ: أُحيط به: دنا هلاكه، وفي القرآن: ﴿إلا أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ أي: تؤخذوا من جوانبكم (الأقرب).

موثقهم: الموثق والميثاق: العهد (الأقرب).

التفسير: نجد هنا تشابهًا بين بنيامين والنبي ﷺ، فكما أن يعقوب عليه السلام أخذ من أبنائه موثقًا لحماية أخيهم بنيامين، كذلك فعل العباس رضي الله عنه عندما جاء أهل المدينة يريدون اصطحاب النبي ﷺ إلى ديارهم، فأخذ منهم عهدًا أن يحموه بأموالهم ونفوسهم. وعندما آتوه العهد هاجر إليهم النبي الكريم ﷺ.(السيرة لابن هشام، أمر العقبة الثانية).

ورد في التوراة أن يعقوب عليه السلام حينما طالب أبناءه بإيتاء الموثق ردّ عليه أكبرهم وهو رأُوبين قائلاً: خُذْ اثنين من أبنائي واقتلهما إن لم أجئ ببنيامين. ولكنّ أباه رفض عرضه و لم يرسله معهم. (التكوين ٤٢: ٣٧) فآتاه يهوذا ما طلبه من حلف وموثق فرضي بإرساله معهم (التكوين ٤٣: ٨). ويتبين من ذلك أن يهوذا كان يُعتبر أكبرهم درجةً في الدين.

هذه العبارة من التوراة سوف تساعدنا أيضًا على فهم الآية رقم ٧٨.

وَقَالَ يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إلا لِلّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ

وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٨﴾

شرح الكلمات:

الحكمُ: حكم بالأمر حكمًا وحكومةً: قضى. والحكم: القضاء (الأقرب). حَكَمَ: أصله مَنَعَ منعًا لإصلاحٍ، ومنه سُميّت اللجام حَكَمَةَ الدّابة. الحكمُ بالشيء أن تقضي بأنه كذا أو ليس بكذا، سواء ألزمتَ ذلك غيرك أو لم تلزمهُ (المفردات).

توكلتُ: توكل على الله: استسلمَ إليه واعتمد عليه ووثق به (الأقرب).

التفسير: حين أخبر إخوة يوسف أباهم عن أحوال مصر ممّا يبعث على الخوف وقالوا إن القوم اعتبرونا جواسيس، نصحهم أبوهم أن يدخلوا مصر واحدًا واحدًا لا مجتمعين، كيلا يعتبرهم القوم أجانب ولا يشتبهوا في أمرهم. ولكنه عليه السلام أضاف أنني لا أملك لكم شيئًا إذا كان الله تعالى قد كتب عليكم محنة وابتلاء.

وقد يعني بقوله هذا: لا تدخلوا على يوسف إلا من أبواب متفرقة. ومعنى ذلك أن الله تعالى كان قد كشف ليعقوب عليه السلام حقيقة الحال، فلجأ حضرته إلى هذه الحيلة لكي يتمكن يوسف عليه السلام من مقابلة أخيه بنيامين على انفراد حتى يحكي له أحوال الأسرة في الوطن.

ونبّه بقوله ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أن ثقتي الحقيقية هي بالله لا بمكيدتي هذه ولا حيلتي. ذلك لكي يلقّن أبناءه -الذين اعتمدوا دائمًا على مكائدهم- درسًا، أن أنبياء الله يعتمدون على النصرة الإلهية فقط، مع أنهم يكونون أكثَرَ أهلِ الدنيا فِطنةً وأوفَرَهم ذكاءً. فما أحوَجَ غيرَهم لأن يتأسّوا بأسوة هؤلاء القوم الكرام.

واعلموا أن التوكل لا يعني امتناع الإنسان عن أخذ الأسباب المادية وإنما المراد منه أن يعتمد على الله تعالى رغم اتخاذ الوسائل والتدابير، موقنًا أنها لن تجدي نفعًا دون نصرته ورحمته عز وجل.

وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ إلا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٦٩﴾

شرح الكلمات:

حاجة: الحاجةُ: السُؤْلُ؛ ما يُحتاج له (الأقرب).

التفسير: على أن يعقوب كان على علم -بناءً على الوحي- بأن ابنه يوسف عليه السلام لا يزال حيًا يرزق، ولكنه لم يكن يعرف معرفة يَقينيّة أن الوزير المصري المشرف على توزيع الطعام هو يوسف نفسه، ويبدو أنه عندما سمع من أبنائه أن المصريين يظنون أنهم جواسيس لأن هذا الوزير وجّه إليهم أسئلة كثيرة.. اقترح عليهم -دفعًا لمخاوفهم- أن يدخلوا من أبواب متفرقة.

وقد قال البعض بأنّ يعقوب عليه السلام اقترح عليهم الدخول من أبواب متفرقة لأنه خشي أن تصيبهم عينُ الناس، إذ كانوا ذوي جمال وبهاء (ابن كثير)، لكني لا أراه رأيًا صائبًا. إذ ليس من المعقول أن يشكل انضمام ابن واحد إلى العشرة الآخرين خطرًا عليهم. لماذا لم يتخذ هذا التدبير عندما ذهب العشرة معًا؟ فالرأي عندي هو ما ذكرته من قبل بأنه أَمَرَهم باللجوء إلى هذه الحيلة إما دفعًا لمخاوفهم عن الجاسوسية، أو تمكينًا ليوسف من مقابلة بنيامين على انفراد.

وأما قوله تعالى ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ فالمراد من هذا العلم الذي تلقاه من الله تعالى هو إدراكه لأهمية التوكل على الله تعالى، فإنه اتخذ التدابير اللازمة، ولكن ثقته الحقيقية كانت بالله تعالى، كما ذكر في الآية السالفة.

وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَاْ أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٧٠﴾

شرح الكلمات:

آوى: أويته وآويته: أنزلتُه (في مترلي)، ومنه: اللهم آوِني إلى ظل كرمكَ وعفوك. (الأقرب)

لا تبتئسْ: ابتأس به: اكتأب واستكان. ومنه (لا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) أي لا تحزن ولا تشتك (الأقرب).

التفسير: وقوله ﴿إِنِّي أَنَاْ أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ﴾ معناه كنتَ تظن أن أخاك قد مات، ولكن الأمر ليس كذلك، فها أنا أخوك حي يرزق، فلا داعي للقلق والحزن الآن. وذلك باعتبار أن بنيامين كان جاهلا بالواقع، أما إذا كان يعقوب عليه السلام أخبره بالواقع فالمعنى: لا تحزن على إيذائهم إياك، لأن الله تعالى سوف ينجيك الآن منهم.

فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧١﴾

شرح الكلمات:

جهّز: (انظر شرح كلمات الآية رقم ٦٠)

السقاية: الإناء يُسقى به (الأقرب).

العِير: قافلة الحمير، ثم كثُرت حتى سمّيت بها كل قافلة (الأقرب) العير: القوم الذين معهم أحمال المِيْرة (أي الطعام) (المفردات).

رحل: (انظر شرح الكلمات للآية ٦٣)

التفسير: يمكن تفسير قوله تعالى ﴿جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ بطريقين، الأول: أن يكون يوسف عليه السلام هو الذي قد وضعها في متاع أخيه عمدًا لفرط محبته له، لكي يستقي بها في سفره. والثاني: أنه وضعها خطأً، كأنْ يكون قد طَلَبَ الماء أثناء حديثه مع أخيه، فلمّا فرغ من شربه وضع الإناء في وعائه ناسيًا.

قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧٢﴾ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٣﴾

شرح الكلمات:

أقبلوا: أقبل عليه: نقيضُ أدبر (الأقرب). الإقبال: التوجه نحو القُبُل (أي الأمام) (المفردات).

صُواع: الصواع: المكيالُ الذي يكال به؛ الجامُ الذي يُشرب فيه (الأقرب).

زعيم: الكفيل (الأقرب).

التفسير: من الذي وضع؟ وماذا وضع؟ وبأية نية وضع؟ ثم كيف اتُّهموا بالسرقة؟ هذه كلها أمور كانت ولا تزال موضع اختلاف بين المفسرين، فقال بعضهم بأن يوسف عليه السلام هو الذي وضع الإناء في وعاء أخيه عمدًا، ثم عاد ورمى إخوته بالسرقة (تفسير الطبري). والحق أن هذا افتراء خطير على يوسف عليه السلام إذ كيف يُتوقع من يوسف الذي يبدي هذه المحبة الشديدة نحو أخيه، أن يلجأ إلى الأسلوب المشين استبقاءً لأخيه عنده لبعض الوقت، فيضع الإناء في رحله عمدًا، ثم يتهمه بالسرقة

ليترك في جبينه وصمة عار للأبد. فلا شك أن هذا ظلم وبهتان ونسبته إلى يوسف كفرٌ. إذ لا يُتوقع هذا حتى من أي إنسان شريف، دعك من أن يرتكبه نبي من أنبياء الله العظام عليهم السلام.

الواقع أن هذه أفكار يهودية مصدرها التوراة التي جاءت فيها القصة على هذا المنوال، فتقبلها المفسّرون السذّج دون أي تمحيص وتدقيق.

ربما كان الصُواع ليوسف، فقالوا: ﴿صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾ تملقًا ليوسف، كما يفعل المتسولون عندنا، حيث ينادون علية القوم: أيها السيد، أيها الملك؛ أو كان الموظفون يستخدمون الأواني الملكية في هذه الأعمال. فجاز لهم أن يقولوا: نقصد صواع الملك.

ويبدو أن الإناء كان ثمينًا، ولذلك قال المنادي: ﴿وَلِمَن جَاء بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾، لأن مثل هذه الجائزة لا تكون إلا على الأواني الذهبية والفضية.

ولا داعي لأن يقول أحد: كيف كان يستخدم يوسف أواني ذهبية أو فضية، وهو أمر منهيّ عنه. ذلك أن النهي عن استعمال الأواني الذهبية والفضية خاص بالشرع الإسلامي، ولكن اليهود لم ينهوا عنه، كما لم يكن الفراعنة يكرهون استخدامه.

الحق أن المشكلة تنحل تلقائيًا بالتدبر في القرآن الكريم نفسه، حيث يتضح من القرآن أن يوسف عليه السلام وضع بنفسه السقاية أي إناء شرب الماء في متاع أخيه. كما يتضح منه أيضًا أنهم فقدوا صُواعًا -أي إناء تكال به الأشياء- ثم عثروا عليه في متاع أخيه أيضًا. وما كان وضع الإناء في متاع أخيه بحادث يستحق الذكر في القرآن لو لم يكن وراءه هدف وغاية. الرأي عندي أن يوسف عليه السلام وضعَ السقاية في وعاء أخيه عن عمد تعبيرًا عن حبه الشديد له. ويبدو أن الصُواع أي "الإناء الملكي" أيضًا كان في يده وقتئذٍ، فوضعه في وعاء أخيه ناسيًا. وعندما فقد العمّالُ الصواع ظنوا أن أحدًا سرقه، فبدءوا يبحثون عنه في أمتعة القافلة كلها بما فيها إخوة يوسف. ولكن الذي قام بالتفتيش فتح وعاء أخيه بنيامين في آخر الأمر، نظرًا لما يبديه يوسف نحوه من حب وحفاوة، فعثروا على السقاية في متاعه. فأدرك يوسف على الفور أين وقع

الخطأ. ولكنه لزم الصمت إلى حين مغادرة إخوته، موقنًا بأن كلَّ ما حدث كان من تدبير الله تعالى، وهكذا بقي أخوه بنيامين عنده.

قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَآؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٥﴾ قَالُواْ جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾

التفسير: لقد تمثل هذا الكيد الإلهي في قول إخوته في حماس ودون رويّة: ﴿جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾.. أي عقاب هذه الجريمة أن تحبسوا عندكم من تجدون الصُواع في رحله، ولو أنهم قالوا بدلاً من ذلك أن تأخذوا من سرقه فلربما ما استطاع يوسف استبقاء أخيه عنده، لأنه لو أبقاه عنده بعد قولهم هذا لعرّضه حتمًا لتهمة السرقة. ولكنهم قد أتاحوا بقولهم هذا ليوسف فرصة ليُبقي أخاه عنده دون تعريضه لأية تهمة.

فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاء أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلا أَن يَشَاء اللّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّن نَّشَاء وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٧﴾

شرح الكلمات:

بدأ: بدأت بالشيء: ابتدأته، وبدأ بفلان: قدّمه (الأقرب).

وعاء: الوعاء: الظرفُ يُوعى فيه الشيء، جمعُه أوعية (الأقرب).

كدنا: كاد له: احتال له (الأقرب).

ليأخذَ: أخذه: حبسه (الأقرب).

دين: دان يدين دينًا: أطاع. ودان فلانًا: خَدَمَه؛ حَكَمَ عليه. والدينُ: الطاعةُ؛ القضاءُ (الأقرب). واستعير (الدين) للشريعة (المفردات).

التفسير: يبدو أن الذي نادى هو نفسه الذي قام بالتفتيش عن الصُواع لا يوسف عليه السلام. والمراد من كلمة ﴿قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ أي قبل وعاء بنيامين الذي هو أخ ليوسف. ولم يؤخر التفتيش عن الصواع في وعاء بنيامين لأنه كان على علم بأن الصواع في متاعه وسوف يعثر عليه في نهاية المطاف، وإنما بدأ بالآخرين قبله أدبًا واحترامًا له، لما كان يوسف يخصه بحب وحفاوة غير عاديين، ولم يتوهم أن يكون الصواع في وعائه.

إن قوله تعالى﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ يؤكد أن هذا كان تدبيرًا خاصًا من الله تعالى، ومع ذلك نجد بعض المفسرين مصرّين على اتهام يوسف عليه السلام بالكذب والخداع. والحق أن كل هذا كان تخطيطًا إلهيًا خاصًا، حيث جعل يوسفَ يترك "الصواع" في وعاء أخيه ناسيًا، ثم جعل إخوته يقولون متحمسين دونما رويّة: ﴿جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾، وهكذا اضطرهم ليتركوا بنيامين وراءهم عند يوسف. وبعد ما غادر إخوته يكون يوسف قد أخبر عماله بالحقيقة، وهكذا ظهرت براءة بنيامين أمام القوم، فبقي عند يوسف دون أن يجد إخوته فرصة للاعتراض على استبقائه عنده.

وأما قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ فاعلم أن (في) هنا سببية، ونظيره الحديث الشريف الذي يقول: "دخلت امرأة النارَ في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعْها تأكل من خشاش الأرض" البخاري، بدء الخلق).. أي دخلت هذه المرأة

النار بسبب قطة، فمعنى الآية ما كان يوسف ليأخذ منهم أخاه بموجب القانون الملكي، ولكن الله تعالى مكّنه من ذلك دون أن يخالف يوسف قانون الملك.

هنا درس وهو أن الإنسان إذا عاش في بلد ما فعليه أن يطيع قوانين ملِكه أو حاكمه. فكان يوسف عليه السلام نبيًا، ولكنه عاش مطيعا قوانين فرعون، بل هناك أكثر من ذلك إذ يقول الله تعالى: إنه ما كان يليق بيوسف أن يأخذ أخاه منهم بالقوة مخالفا بذلك قانون البلد. مما يعنى أن عيش النبي مطيعا لقانون حكومة أو ملِك لا يتنافى مع مكانته الروحانية، وإنما العكس هو الصحيح.

ولكن للأسف أن المسلمين عامة مصابون في هذه الأيام بتفكير مريض حيث يعتقدون أن طاعة ملك أو حاكم غير مسلم حرامٌ. والحقيقة أن نزعة الغدر هذه والتفكير الخائن كهذا قد ألحقت بالمسلمين أضرارا فادحة وقضت على عنصر الأمانة فيهم. لا شك أن من حق المسلمين أن يسعوا للتقدم والازدهار، ولكن لا بخداع وغدر بل بصدق وأمانة. حينما يقيم أحد في بلد ما فإنه بعمله هذا يعاهد على العيش مطيعا لحاكمه، ومن فكّر بعد ذلك في الغدر بالحاكم فقد انحرف بعيدا عن جادة الحق والعدل، وسوف يدمر هذا التفكير أخلاقه وأعماله، لأنه يعرف في قرارة نفسه أنه منافق. وأرى أن الجبن السائد لدى مسلمي اليوم ناشئ إلى حد كبير من هذا النزعة الفاسدة.

وبيّن بقوله تعالى ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّن نَّشَاءُ﴾ أن مثل هذه الطاعة لا تحرم من الوصول إلى سدة الحكم والسلطان بل إن الله يهيئ من عنده لعباده الصالحين أسبابَ الغلبة والازدهار، لأنه عز وجل منبع كل علمٍ ومالك كل سبب.

قَالُواْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ

وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٨﴾

شرح الكلمات:

شرٌّ مكانًا: المكان: الموضع. ويقال: كان من العلم والعقل بمكان، أي رتبة ومنزلة (الأقرب).

التفسير: إن الجريمة تشجع حتمًا على المزيد من الجرائم. لقد همَّ إخوة يوسف في البداية بقتله قتلاً ماديًا، أما الآن فيريدون قتله أخلاقيًا. فانظروا كيف يقولون بكل جسارة: إن سرق بنيامين فلا غرابةَ في ذلك فقد سبق أن ارتكب أخوه يوسف نفس الجريمة. ويتضح من قولهم هذا أنهم لم يكونوا قد تابوا توبة صادقة إلى ذلك الحين.

إنه لمما يثير الحيرة والدهشة أن المفسرين شرعوا يبحثون عن سرقةٍ ليوسف مصدقين قول إخوته هذا، بدلاً من رفضه وتكذيبه، حتى كتب بعضهم أنه عليه السلام كان يسرق الأشياء من بيت عمته (الدُر المنثور). سبحانك اللهم، إنْ هذا إلا بهتان عظيم!

يصعب على المرء تقدير الآلام والمعاناة التي عالجها يوسف من قولهم هذا، ولكنه – رغم قدرته عليهم– لزم الصمت، كاظمًا غيظه ومتأسفًا على حالهم.

ما أعظم شأنه وأرفع مكانته. فكم من امرئ يصرعه الغضب مع أنه لا يملك قدرة ولا غلبة على غيره، ولكننا نجد يوسف عليه السلام رغم مقدرته على عقاب إخوته صبَرَ على ما وجّهوه إليه من تهمة منكرة. هذه هي الأخلاق التي يصل المؤمن المتحلّي بها إلى الدرجات العلى.

قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا

نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٩﴾

شرح الكلمات:

مكانَه: يقال هذا مكان هذا أي بدله (الأقرب).

التفسير: يا لقسوة قلوبهم المتحجرة! لقد اتهموا أخاهم من قبل بالسرقة، والآن يحتقرون أخاهم الآخر حيث ينفون صلتهم به، وكأنه ليس أخاهم، ولم يحاولوا أن يتوسلوا له عند العزيز قائلين: أيها العزيز، اغفرْ لأخينا هذا فإن لنا أبًا شيخًا كبيرًا، بل قالوا ﴿إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾، وكأنهم بسبب حماسهم وحميتهم رأوا من العار أن ينتسبوا إلى يعقوب الذي أنجب السارقين كيوسف وبنيامين!

قَالَ مَعَاذَ اللّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّآ إِذًا لَّظَالِمُونَ ﴿٨٠﴾

شرح الكلمات:

معاذَ الله: معاذَ الله ومعاذَ وجهِ الله أي أعوذ بالله أو بوجه الله معاذًا (الأقرب).

التفسير: إن هذه الآية تمثل دحضًا لعقيدة الكفَّارة المسيحية، حيث يقول يوسف عليه السلام إنه لظلم أن نُلقي في غياهب السجن شخصًا بريئًا -وإن رضي بذلك- بدلاً من المجرم. ولكن النصارى يقولون بأن المسيح عليه السلام صُلب عن رضًا ورغبة منه، فصار كفارة لخطايانا (تفسير جروم للتوراة ج٢ ص١٦٧). ولكن التوراة نفسها ترفض حتى مثل هذه الكفارة، حيث جاء فيها أن إخوة يوسف حينما عرضوا على العزيز أن يأخذ أحدهم مكان بنيامين ردّ عليهم قائلاً: "حاشا لي أن أفعل هذا. الرجل الذي

وُجد الطاس في يده هو يكون لي عبدًا" (التكوين ٤٤: ١٧).

فثبت أن التوراة أيضًا لا تجيز معاقبة البريء مكان المجرم -وإن رضي بذلك الأول- وتعتبره ظلمًا صارخًا.

فَلَمَّا اسْتَيْأَسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُواْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىَ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨١﴾

شرح الكلمات:

استيأسوا: يَئِسَ: قنَط، واستيأس بمعنى يئس(الأقرب).

خلصوا: خلصَ إليه وبه الشيء: وصل (الأقرب).

نجيًّا: النجيُّ: السرُّ؛ من تُسارُّه. وقد يكون للجمع أيضًا مثل الصديق. ومنه ﴿خَلَصُواْ نَجِيًّا﴾ أي متناجين. وقال الفراء: قد يكون النجيُّ والنجوى اسمًا ومصدرًا.والنجيُّ: المحدِّث؛ السريعُ (الأقرب) وقال صاحب المفردات: ﴿خَلَصُواْ نَجِيًّا﴾ أي انفردوا خالصين عن غيرهم.

كبيرهم: يقال فلان كبيرٌ أي مسن. وقوله تعالى ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ أي رئيسكم (المفردات).

موثقًا: الميثاق: عقد مؤكد بيمين وعهد، والموثق الاسم منه (المفردات).

فرَّطتم: فرّط الشيءَ وفيه: ضيّعه وقدّم العَجزَ فيه. فرّط في الشيء: قصّر فيه (الأقرب).

لن أبرحَ: ما برحَ فلانٌ كريمًا: أي بقي على كرمه (الأقرب).

التفسير: هؤلاء الذين اتهموا يوسف بالسرقة اعترفوا صراحة بجريمتهم المشتركة ضد يوسف على انفراد. سبحان الله، ما أعظم قدرته. فإنه كتب ليوسف رفعةً فاقت تصوراتهم، ففشلوا في معرفته، إذ لو عرفوه لما تجاسروا على هذا الاتهام.

أما (كَبِيرُهُمْ) الذي ذكّرهم بجرائمهم فيبدو أنه كان في قلبه شيء من خشية الله تعالى، إذ يخوّفهم من الغدر بأبيهم، كما يعبّر عن عزيمته على الوفاء بالعهد الذي قطعه مع أبيه حيث قال: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىَ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللّهُ لِي﴾. ربّما قصد بقوله ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللّهُ لِي﴾ أن يطلق سراح بنيامين بتدبير من الغيب فيرجع به إلى الوطن.

كان رأوبين أكبرَ إخوة يوسف عليه السلام، وأما الذي رفض العودة إلى البيت فهو يهوذا الذي كان الرابع بين إخوته سنًا بحسب ما ورد في التوراة (التكوين ٢٩و٤٤). وقد طعن بعض الكتاب المسيحيين في القرآن بأنه قد أخطأ في قوله ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ حيث نسب هذا الرفض إلى رأوبين بدلاً من يهوذا الذي قال هذا الكلام في الواقع! مما يدل أن مؤلف القرآن كان جاهلاً بالتاريخ (تفسير ويري).

إنني لأتعجب دائمًا على مثل هذه المطاعن من قبل المسيحيين، حيث يعرضون التوراة وكأنها أكثر الكتب السماوية ثقةً وسندًا في بيان القضايا التاريخية. والحق أن الكتب المسيحية نفسها زاخرةٌ بأدلة تدحض هذا الزعم وتسقط ثقة التوراة في مجال التاريخ إلى حدٍّ كبير. دعوا التاريخ القديم جانبًا، فإن ما ورد فيها عن رحلات موسى عليه السلام من أحداث لا يثق بها حتى الباحثون المسيحيون أنفسهم، وقد برهنوا على زيفها وبطلانها بأدلة مستقاة من الأحوال الجغرافية والتواريخ الأخرى لتلك العصور بل ومن الشهادات الداخلية من التوراة نفسها. فإن طعنهم في القرآن -بناءً على مثل هذا الكتاب المحرّف- مَثار للعجب حقًّا. مما لا شك فيه أننا نستشهد ببعض ما ورد في التوراة من أحداث ولكن شريطة أن تكون منسجمة مع العقل وموافقة للتواريخ الأخرى

أو القرآن الكريم، لأن التوراة قد عبثت بها أيدي المحرفين بحيث لا يمكن اعتبار التاريخ المذكور فيها تاريخًا محفوظًا مصونًا. فلا يجوز إذن لأحد -بناء على بيان التوراة- الطعنُ في القرآن الكريم، خاصة وأن البحوث الحديثة قد أكدت على ما ذكره القرآن من أحداث التاريخ اليهودي، كعبادة العجل وصيانة جثة فرعون بعد الغرق، بينما أثبتت هذه البحوث بطلان بيان التوراة في هذه الأمور.

هذا وإذا سلمنا جدلاً بصحة بيان التوراة في هذه القضية فهذا أيضا لا يقدح في القرآن لأنه قال ﴿كَبِيرُهُمْ﴾ ولم يقل "أكبرهم"، ولا مانع من اعتبار الابن الرابع من الإثني عشر من أبناء يعقوب "كبيرهم" وإن لم يكن أكبرهم. إذ نستطيع التوفيق بين بيان المصدرين بكل سهولة، ذلك أن نأخذ كلمة ﴿كَبِيرُهُمْ﴾ بمعنى الكبير درجةً لا الكبير سنًا، وسبق أن أثبت في تفسير قوله تعالى ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللّهِ﴾ أن يعقوب عليه السلام كان يثق بيهوذا -الابن الرابع سنًا- أكثر من رأوبين - الابن الأكبر سنًا، إذ لم يرسل بنيامين معهم إلا بضمان من يهوذا، ولذلك كله يجب اعتباره "كبيرهم".

ارْجِعُواْ إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨٢﴾

التفسير: لقد قال بعض المفسرين بأن هذا قول يوسف عليه السلام، ولكنني لم أفهم كيف نسبوا هذا القول إليه، لأن السياق لا يؤيد رأيهم. أرى أن الآية تتمة لقول "كبيرهم".

وأما قوله ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ فيمكن تفسيره بمعنيين؛ الأول: لا نعرف بالضبط حقيقة الأمر، بل نحكي لك ما رأيناه. والثاني: أن يكون كلامهم هذا في شأن موثقهم الذي آتوه، والمعنى: عندما آتيناك الموثق لم نأخذ في الحسبان أنه يمكن أن نأتيك بمثل هذا الخبر، وإنما عاهدناك حينئذ بنية طيبة.

وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾

شرح الكلمات:

القرية: اسم للموضع الذي يجتمع فيه الناس، وللناس جميعًا، ويستعمل في كل واحد منهما. قال تعالى ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ قال كثير من المفسرين: معناه أهل القرية. وقال بعضهم: بل القرية ههنا القوم أنفسهم (المفردات).

التفسير: انظروا كيف أن الصدق يشحن صاحبه قوة ويغير نبرة حديثه تمامًا. فإنهم عندما جاءوا أباهم بحديث كذبٍ عن موت يوسف كانوا مترددين في التأكيد على قولهم، أما الآن فكيف يقصون على أبيهم خبر بنيامين بكل ثقة وشجاعة ليؤكدوا له صدقهم حتى إنهم يقدّمون شهادة الآخرين.

قالوا: اسأل القرية (أي مصر)، والعير (أي الحمير)، بدلاً من أن يقولوا أهل القرية وأهل القافلة وأصحاب العير، وذلك تأكيدًا وتنبيهًا كعادة العرب، والمراد: اسألْ أيَّ فرد من القرية والقافلة، فكل صغير وكبير منهم يعرف الحكاية، وسوف يصدقنا فيما نقول.

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٤﴾

شرح الكلمات:

سوّلتْ: سوّلت له نفسه كذا: زيّنته له وسهّلته له وهوّنته (الأقرب). التسويل: تزيين النفس لما تحرص عليه وتصوير القبيح منه بصورة الحسن منه (المفردات).

التفسير: لقد حذف القرآن هنا -كعادته- الأمور الهامشية من أن إخوته رجعوا إلى أبيهم وقصّوا عليه الحادث، واكتفى بذكر جواب يعقوب رأسًا. ذلك أن القرآن ليس كتابًا تاريخيا، ولذلك يترك الزوائد، مركّزًا على المعنى المُراد تنبيهًا للقارئ إلى الدرس الذي يريد تلقينه إياه.

لقد أجابهم يعقوب عليه السلام أن أهواءكم النفسانية قد زينت لكم السيئة. ولم يرد بقوله هذا تكذيبهم في ادعائهم بأن بنيامين قد حُبس، بل يعني أن عداءَكم لبنيامين دفعكم لتصدّقوا ما اتُّهم به من السرقة، كان من واجبكم أن لا تسيئوا به الظن، وتقولوا: إنه لم يسرق شيئًا بل كل ما جرى له كان سببه سوء الفهم.

وأشار يعقوب عليه السلام بقوله ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ إلى اعتقاده بحياة يوسف وأنه ليس بعزيز على الله تعالى أن يأتي به وبأَخَويه بنيامين ويهوذا جميعًا. ويتبين من قوله هذا أنه كان متأثرًا بوفاء يهوذا، لما آتاه من قول وعهد، ولذلك نجد أن قلبه بدأ يلتاع على فراقه ويتألم.

كما وضّح بقوله ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ أن الله العليم قد كشف لي الحقيقة، وأرى الآن أن كل ما فعل الله بنا كان لمصلحتنا، وأن ما قاسيناه من معاناة ومحنة كان في الواقع فاتحة خير وازدهار لأسرتنا جميعًا.

وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٥﴾

شرح الكلمات:

تولّى: تولّى عنه: أعرض وتركه (الأقرب).

ابيضّت عيناه: يُقال للمهموم: أظلمت عليه الدنيا وابيضت عيناه من الحزن (مجمع البحار). وبيّض السقاء: ملأه باللبن؛ أفرغ ما فيه وأراقه. والأبيضان: اللبن والماء. (التاج)

الحزن: خشونة في النفس لما يحصل فيها من الغم، ويضادّه: الفرح (المفردات).

كظيم: الكُظوم: احتباس النفس، ويُعبَّر به عن السكوت. كَظَمَ الغيظ: حبسه. كظم السقاء: شدّه بعد ملئه مانعًا لنفسه (المفردات). فالكظيم: من يملك غضبه.

التفسير: لقد اختلف المفسرون كثيرًا في تفسير قوله تعالى ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾، حتى قال البعض بأن يعقوب عليه السلام أُصيب بالعمى، إذ غطى البياض عينيه. ثم اختلفوا في سبب بياضهما، فأرجعه بعضهم إلى البكاء طوال أربعين بل واحدة وثمانين سنة. بينما أرجعه الآخرون إلى تفاقم صدمته بفراق ابنه الثاني (فتح البيان).

والواقع أن كلمة (ابْيَضَّتْ) لا يُعبَّر بها أبدًا عن عمى العينين، وإنما الحق أنهم حمّلوا الكلمة ما لا تحتمله أبدًا. وحجتهم أنه ورد في القواميس معنى مجازيّ للبياض أيضًا حيث يقولون: بيّض السقاية: أفرغه، ومطاوعه ابيضَّ، فالمعنى عندهم أن عينيه جرتا بالدموع الغزيرة حتى فرغتا من البصارة.

ولكننا نقول: ما دامت كلمة (ابْيَضَّتْ) لا تعني العمى، فلماذا لا نأخذ بالمعنى المجازي الآخر وهو قولهم "بيّض السقاء" ملأه بالماء أو اللبن، خاصة وأنهم يطلقون عليهما أي على الماء واللبن كلمة "الأبيضان"، فالمراد من ﴿ابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ﴾ نظرًا إلى

هذا المعنى: امتلأت عيناه من الماء أي الدمع. أو نأخذها بمعنى مجازيّ سامٍ آخر للبياض ألا وهو البريق واللمعان. والمراد أنه برقت عيناه من الغم، وحصول البريق فيهما عند الغم أمر طبيعي شريطةَ أن لا تطول فترة الهم. والأدباء يعبّرون عن هذا المعنى باستخدام كلمات كهذه، حيث يقولون لاحت في عينيه بارقة أمل. فالمعنى أن عينيه لمعتا عندما حلت به الفاجعة الجديدة، أو عندما أحسّ بأن الهم قد بلغ منتهاه وأن الفرج موشك وأن رحمة الله قريبة.

الحق أن كلمة ﴿ابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾ تعبير عن شدة الغم والحزن كما ذُكر في شرح الكلمات. فمن فسّرها بما يخالف هذا المعنى الصريح فقد أبعد النجعة، الأمر الذي لا حاجة له بالقرآن الكريم. خاصة وأن الله تعالى يقول بعد ذلك مباشرة ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي أن يعقوب عليه السلام نجح في ضبط نفسه ولم يستطع الهم أن يصرعه. فكيف نسلم إذن بأن حضرته ضيّع بصره من شدة البكاء. وكيف يكون كظيمًا من يضيع عينيه بالبكاء هكذا. فالواقع أننا ولو سلّمنا جدلاً أن كلمة (ابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ) تعني لغةً فقدان البصر من شدة البكاء فلا ينسجم هذا المعنى هنا لوجود كلمة (كَظِيمٌ).

وبالإضافة إلى ذلك، فقد نقل القرآن قول يعقوب (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ).. أي سوف أضرب في الصبر مثالاً جميلاً يحتذى به. فلو كان قد أضاع بصره بالبكاء فكيف جاز له الادعاء بالصبر الجميل؟

وقد وضّح الحديث الشريف معنى "الصبر" بكل وضوح، حيث رُوي أن النبي ﷺ مرَّ بامرأة وهي تبكي عند قبر ابنها. فقال لها: اتّقي الله واصبري. فقالت: إليك عني، فإنك لا تعرف مصيبتي. فقال: لقد مات لي أحد عشر، ثم مضى النبي ﷺ في سبيله. فقال لها رجلٌ: هذا رسول الله ﷺ. فقالت متأسفة: لم أعرفه. وجاءت النبي ﷺ تعتذر إليه وتقول: يا رسول الله ما عرفتك، سأصبر من الآن. فقال: إنما الصبر عند الصدمة الأولى (البخاري، الأحكام). أي أن الصبر الحقيقي إنما هو ما يكون في بداية الصدمة، أما بعد مرور فترة فتهدأ العواطف وتسكن المشاعر وكل واحد يترك البكاء ويصمت.

فالذي يبدي فزعًا وهلعًا ويولول عند الصدمة ولو لبضع ساعات ثم يسكت فلن يعدَّ من ذوي الصبر الجميل. فكيف يمكن أن يدعي يعقوب الذي لم يزل باكيًا لحوالي أربعين سنة بأنه صَبر صبرًا جميلاً. الواقع أنه إذا بالغ المرء في الهم والحزن عند حلول الفجيعة، فسواء أبدى حزنه للناس أو لا فقد جزع وفزع، وهذا هو الأمر المنكر المنهي عنه.

ومن المحال أن يحزن أحد من أنبياء الله الكرام على مكروه حزنًا يُشرف به على الهلاك. وإذا كان يعقوب يبكي هكذا بكاءً مستمرًا على الدوام فكيف أدى واجب تبليغ الرسالة. فيجب ألا نأخذ حتى من المعاني المجازية للكلمة إلا ما يتفق مع المكانة الرفيعة التي كان يحتلها يعقوب عليه السلام، ونرفض ما من شأنه أن يحطّ حتى من درجة المؤمن العادي.

قَالُواْ تَاللّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٦﴾

شرح الكلمات:

تَـفْـتَـأُ: ما فَتَأَ يفعل كذا وما فَتِئَ: أي ما زال (الأقرب).

حَرَضًا: حَرَضَ حروضًا: كان مُضْنًى؛ مَرِضَ؛ وسَقِمَ. حرَض الرجل نفسه: أفسدها. حرَض حرَضًا: فسَد بدنه، لا يقدر على النهوض. وحرُض حَراضةً: طال همه. الحَرَض: الفساد في البدن وفي المذهب وفي العقل. والحَرَض: المشرف على الهلاك تسميةً بالمصدر للمبالغة. وحرَضٌ: مَن لا خير عنده؛ وقيل من لا يرجى خيره ولا يُخاف شره؛ من أذابه العشق أو الحزن؛ الساقطُ لا خير فيه؛ الرديءُ من الناس؛

المضنَى مرضًا وسقمًا، ومنه في القرآن:﴿حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا﴾ أي مُدنَفًا (الأقرب).

التفسير: "لا تفتأ" تفيد النفي والاستمرار بمعنى: لا تزال، وتأتي مصحوبة بقسم وبدونه، وأحيانًا يكون القَسَم متضمنًا فيها. والمراد من الآية أنك لن تزال تبكي وتتحسر على فراق يوسف حتى لن تصلح لأي عمل أو ستُشرف على الهلاك.

أليس عجبًا أن نجد هؤلاء يخوّفون أباهم من هذه الأخطار المتوقعة، ونجد المفسرين يقولون بأن يعقوب عليه السلام كان قد أُصيب بالعمى فعلاً لشدة البكاء وصار كالساقط الرديء من المتاع. والحق أن أنبياء الله الكرام يتمسكون بأهداب الصبر دائمًا، ولا يبدون الفزع والقلق بهذا الشكل. لقد جربنا ذلك بأنفسنا، إذ رأينا بأم أعيننا نبيًا من أنبياء الله عليهم السلام،وشاهدنا بأنفسنا حالته في مثل هذه المواقف.*

قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٨٧﴾

شرح الكلمات:

بثّي: البثُّ: الحالُ؛ أشدُّ الحزن (الأقرب). أصل البث: التفريقُ وإثارة الشيء. وبثُّ النفس: ما انطوت عليه من الغم والسرّ. قوله عز وجل ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي﴾ أي غمي الذي يبثه عن كتمان، أو بمعنى غمي الذي بثَّ فكري (المفردات).

التفسير: وهذا يعني أن يعقوب عليه السلام كان يعلم -بناءً على الوحي الإلهي- أن يوسف عليه السلام لا يزال حيًّا يرزق.

* يشير هنا حضرة المفسر إلى سيدنا الإمام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام. (الناشر)

يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾

شرح الكلمات:

تَحسّسوا: تحسّسَ: استمع لحديث القوم وطَلَبَ خبرهم في الخير. وقيل: التحسّس شِبْهُ التسمع والتبصر، يقال: اخرجْ فتحسّسْ لنا. وقال أبو عُبيد: تحسست الخبر وتحسيت. وتحسَّس من الشيء: تخبّر خبره. وبكل ما ذُكر (أي ما ذكرناه من معانٍ) فسِّر قول القرآن ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ (الأقرب).

لا تيأسوا: يئِس: قنط أو قطع الأمل، فهو يائس (الأقرب).

رَوح: الرَوح: راح إليهم رَوحًا: ذهب إليهم في الرواح. وراح اليوم روحًا: إذا كان ريِّحًا طيِّبًا. الرَوْحُ بمعنى الراحة؛ نسيمُ الريح تقول: وجدت رَوح الشَّمال: أي نسيمها. والرَوح: النصرةُ؛ العدلُ الذي يريح المشتكي؛ الفرحُ والسرور؛ الرحمةُ (الأقرب). وهنا ينطبق المعنى الأخير.

التفسير: يتبين من هذه الآية بكل جلاء ووضوح أن الله تعالى كان قد أخبر يعقوب بأن يوسف لا يزال حيًا وأنه في مصر، إذ من المحال أن يأمر أبناءه بالعودة إلى مصر باحثين عن ابن كان يظنه ميتًا بيد ذئب أو بأي طريق آخر.

لقد بيّن الله ﷻ في الآية سرًا عظيمًا وفريدًا للفلاح والرقي، ألا وهو أن اليأس وفقدان الهمة هو أصل كل فشل وهزيمة. فالذي يترك العمل فاقدًا الهمة دون أي دليل قطعي على كون الأمر مستحيلاً يبقى فاشلاً على الدوام في مقصده. وهذه القاعدة تعم كل مجال من مجالات الحياة. وهذا هو الفارق حتى بين حدّاد ماهر وبين حدّاد عادي، فبينما تجدون هذا يقول دومًا عند مواجهة عملٍ صعب: إنه محال، سترون الآخر جاهدًا في تذليل الصعاب حتى يخرج منها ناجحًا في آخر المطاف. كذلك

المريض الذي يفقد الأمل في الشفاء يصعب عليه استرداد الصحة، والطالب الذي لا يرجو التوفيق في الدراسة تضعف ذاكرته وذكاؤه. وإن المبدأ نفسه جارٍ في المجال الروحاني أيضًا، فالشعوب التي لا تؤمن بأن الله قادرٌ على أن يغفر الذنوب فإنها لا تسعى بما يكفي للتخلص من ذنوبها، والأمم التي لا تؤمن بكون الفطرة الإنسانية طاهرة نقية من العيوب فإنها لا تهتم باستخدام ملكاتها الروحانية ولا بتطويرها حتى تصل بها إلى الذروة.

ولقد نبّهنا النبي ﷺ إلى طرد اليأس والقنوط تنبيهًا خاصًا إذ قال: لكل داءٍ دواءٌ إلا الموت. وأيضًا قال: من قال هلك القوم فهو أهلكهم، لأنه يثبط همم القوم، وهكذا يدفعهم إلى الدمار.*

فيجب رفع معنوياتهم دائمًا على كلا الصعيدين؛ الفردي والقومي، ولكن شريطةَ أن تكون هذه الآمال حقيقيةً تحفز على السعي والعمل، لا أن تكون أماني فارغة تؤدي إلى مزيد من الكسل والغفلة، كما هو حال المسلمين اليوم، فإنهم بدلاً من أن يصلحوا حالتهم بالسعي والكفاح يظنون أن المسيح الناصري عليه السلام سينزل من السماء، ويوزع عليهم نعم الدنيا وكنوزها. إن الأماني أي الآمال الفارغة التي لا تكون مصحوبةً بالكفاح والنضال عندما تستولي على القلب تصبح مدمرّة كاليأس تمامًا.

* لم نعثر على هاتين الروايتين، إلا أن هناك روايتين أخريين بنفس المعنى أولاهما: "إن الله عز وجل لم ينزل داءً إلا وأنزل معه شفاءً، إلا الموت والهرم. (مسند أحمد ج ٤ ص ٢٧٨)، وثانيتهما: إذا قال الرجل هلك القوم فهو أهلكهم. (مسلم، البر والصلة). (الناشر)

فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ اللّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٩﴾

شرح الكلمات:

الضُرُّ: ضد النفع؛ سوءُ الحال والشدة. وفي الكليات: الضَرّ بالفتح شائع في كل ضرر، وبالضم خاص بما في النفس كمرض وهُزال (الأقرب).

مُزجاة: المزجَى: الشيءُ القليل، وبضاعةٌ مزجاة: أي قليلة؛ وقيل: رديَّةٌ لم يتم صلاحها فتُرد وتُدفعُ رغبةً عنها (الأقرب).

التفسير: إن كلمة (الْعَزِيزُ) عربية ومعناها: المعزَّز أو الناجح، ولكنها كانت تشير عندئذ إلى منصب خاص، وإن كانوا أخذوا فيما بعد يطلقون على الملك المصري "عزيز مصر"، ولكن لغةَ المصريين في زمن يوسف لم تكن عربية حتى نظن أنهم كانوا يطلقون هذه الكلمة على الوزراء. أرى أنها قد وردت هنا بمعنى سيد القوم وكبيرهم. وامرأة العزيز تعني زوجة ذلك الكبير أو الموظف.

يصعب على المرء تفهُّم سلوك إخوة يوسف في هذا الموقف. فإما أن غشيانهم المتكرر للمعاصي تَسَبَّب في فساد أخلاقهم لدرجة أنهم أخذوا يسألون الطعام والغلال بدلاً من أن يبحثوا عن إخوتهم المفقودين. أو نقول إنهم أخفوا بهذا السؤال قصدهم الحقيقي خشية أن يعتبرهم القوم جواسيس جاءوا للتآمر عليهم.

قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٩٠﴾

التفسير: يبدو أن يوسف عليه السلام عندما رأى إخوته بهذه الحالة المخزية أخذته الغيرة عليهم، فلم يملك نفسه وكشف لهم الحقيقة كيلا يعرّضوا أنفسهم للمزيد من الخزي والهوان.

لاحِظوا البون الشاسع بين سلوك الإنسان المادي والإنسان الروحاني. فإن إخوته لم يظلموه ظلمًا ماديًا فحسب بل سعوا جاهدين ليشوّهوا سمعته ويمسّوا كرامته باتهامه بالسرقة، ولكن يوسف عليه السلام عندما يذكّرهم بجريمتهم يقول:﴿إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾، ذلك ليخفف من شناعتها، وكأنه قال: ما فعلتم بيوسف في صغره كان مجرد لهوٍ صبياني، وإلا فأنتم أناس طيبون. هذه هي الأخلاق النبيلة التي تقيم للإنسانية وزنها وتبرز جمالها، والتي يجب على كل مؤمن أن يتحلى بها.

قَالُواْ أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾

التفسير: إن روعة ما أشار به يوسف إلى الأحداث الماضية، وتأكيدَ يعقوب على أبنائه من قبل للبحث عن إخوتهم في مصر، كل ذلك حدا بهؤلاء أن يستنتجوا على الفور بأن هذا هو يوسف. اُنظروا سموّ أخلاقه عليه السلام، فإنه لا يدَعهم يعانون أكثر من ذلك، بل يخرجهم من الشبهات والوساوس بكشف الحقيقة عليهم فورًا. ثم ينصحهم بكل حب ولطف أن يتمسّكوا بالصبر والتقوى، ويخبرهم أن مدّ اليدِ بالسؤال إلى الآخرين ليس هو الطريق السليم للتغلب على المشاكل، وإنما سبيله تقوى الله والصبر.. أي أن يتخذ الإنسان اللهَ سترًا، ويستمر في الكفاح دون اكتراث بالشدائد. يبدو من أسلوب الآية أن يوسف عليه السلام أحضر أخاه بنيامين عندئذٍ ولذلك قال مخاطبًا إخوته: "أنا

يوسف وهذا أخي".

قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩٢﴾

شرح الكلمات:

آثَرَكَ: آثره إيثارًا: اختاره وأكرمه؛ فضّله (الأقرب).

التفسير: لقد تنبّهت الآن فطرتهم السليمة من غفوتها، فاعترفوا بصحة رؤياه في الصغر قائلين: لقد تحققت رؤياك أخيرًا حيث فضّلك الله علينا رغم معارضتنا إياك، وكنا نحن المخطئين فيما فعلنا.

قَالَ لا تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٣﴾

شرح الكلمات:

لا تثريبَ: التثريب: التقريع والتقهير بالذنب (المفردات). ثَرَبَهُ ثَربًا: لامه وعيّره بذنبه. وثربَ المريضَ: نزع عنه ثوبه. وفي "المصباح": ثربَ عليه: عتب ولام. وثرّبه وثرّب عليه: قبّح عليه فعله، يقال: لا تثريب عليكم (الأقرب).

التفسير: لقد قدّم يوسف نموذجًا مثاليًا للأخلاق الفاضلة، إذ لم يلبث أن أعلن العفو عنهم. كان إخوته في بلد غريب حيث لا ناصر لهم ولا معين، وكم من وساوس ومخاوف كانت تساورهم في تلك اللحظات، ولكنه نجّاهم دون تردد من معاناتهم الذهنيّة التي لا تقلّ وطأةً وإيلامًا من التعذيب البدني. فلم يغفر لهم فحسب،

بل أمّلهم أيضًا في مغفرة الله تعالى. إن هذا العمل الوحيد من يوسف عليه السلام يبلغ من العظمة والروعة بحيث أنه يستحق به أن يُكتب اسمه بأحرف من نور ويُذكر دائمًا بالخير.

لقد ذُكر هذا الحادث في القرآن والتوراة أيضًا، ولكن يتضح من دراسة المصدرين أن التوراة قصّته لتبيّن فقط كيف وصل أولاد إبراهيم عليه السلام إلى مصر، بينما تناول القرآن الكريم هذا الحادث لكي يبرز ما فيه من محاسن ودروس أخلاقية، ولا سيّما ليبين أن أهل الله تعالى لا يخافون المحن والمصائب لأنها تزيد أخلاقهم جلاءً وجمالاً، وأن العدوان عليهم لا يولّد في قلوبهم جحيمًا من البغض والانتقام، بل يحوّلها إلى جنةٍ أشجارها العفو وثمارها السكينة.

المماثلة السابعة عشرة: وكما أن يوسف عليه السلام ازداد بعد الهجرة عزًا وشرفًا، كذلك حقق الله عز وجل للنبي ﷺ الرقي والازدهار بعد هجرته إلى المدينة، حتى إن البلد نفسه الذي خرج منه مهاجرًا تحت ستار الليل وقع في يديه بعد أن دخله منتصرًا في وَضَحِ النهار، ومعه عشرة آلاف قُدُّوسي من صحابته الأطهار رضي الله عنهم. عندها قال النبي لأهل مكة: ما ترون إني فاعل بكم؟ وبما أنهم كانوا قد أدركوا مكانته الرفيعة، وانكشفت عليهم الغاية من نزول سورة يوسف، فلذلك أجابوه على الفور: ستفعل بنا ما فعل يوسف بإخوته. فقال: لا تثريب عليكم اليوم، اذهبوا فأنتم الطلقاء.*

يا لروعة المشهد المثير! يُعرَض عليه ﷺ أعداؤه الذين صبّوا عليه وعلى أصحابه من المظالم والمصائب ما تنخلع من هوله القلوب، وذلك لعشرين سنة متتالية. من ذا الذي يغفر بهذه السهولة لمثل هؤلاء الأعداء؟ ولكن النبي ﷺ غفر لهم جميعًا دون تردد كلَّ

* لم نجد هذه العبارة في كتب التراث وإنما جاء فيها أنهم أجابوه بقولهم: "أخٌ كريم وابن أخ كريم". قال فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته: لا تثريب عليكم اليوم، اذهبوا فأنتم الطلقاء. (زاد المعاد من هدي خير العباد، دخول النبي مكة). (الناشر)

ما فعلوه من قبل.

اشتد المرض مرةً بالإمام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام فلم يستطع الذهاب إلى المسجد، فكان يصلي المغرب والعشاء بالجماعة في بيته في معظم الأحيان، وكان يقرأ هذه الآيات في صلاة العشاء كل يوم تقريبًا. ولا أزال أتذكر جيدًا أنه عندما كان يقرأ قول الله تعالى:﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا... إلى قوله تعالى... وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾..كان يقرأها بنبرة ملؤها الرقة والألم حتى إنني ما كنت أستطيع مقاومتها وكنت أُصاب باضطراب شديد. ولا يزال صدى ذلك الصوت العذب يَرِنُّ في أُذُنَيَّ، وربما أستطيع إلى الآن محاكاته إلى حد كبير.

أما سبب تلاوته هذه الآياتِ فهو أن الذي كان يجري بينه وبين قومه كان مماثلاً لِمَا جرى بين يوسف وإخوته عليهما السلام.

إلا أنني أشك فيما إذا كان حضرته عليه السلام يقرأ الآية التالية أيضًا أم لا، وما إذا كان يقرأ هذه الآيات في ركعة واحدة أم في ركعتين.

اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٤﴾

شرح الكلمات:

بصيرًا: البصير: المقتدر على النظر خلاف الضرير. رجل بصير بكذا: عالم به خبير (الأقرب).

التفسير: لقد قال بعض المفسرين بأن قول يوسف هذا يمثّل لومه على إخوته. ولكني أرى أنه قد عبّر بذلك عن عفوه البالغ، إذ يخبرهم أنكم عندما ذهبتم إلى الوالد

بقميصي أول مرة أثرتم سخطه، فخذوا الآن قميصي هذا لتبشّروه وتسرّوه، ولكي يدعوَ لكم ربه طالبًا لكم المغفرة والرحمة. فقد أعلن يوسف عن عفوه عنهم من قبل بقوله:﴿لا تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾، أما الآن فإنه يرسل قميصه إلى أبيه متوسلاً إليه أن يعفو ويدعو لإخوته.

أما قوله ﴿يَأْتِ بَصِيرًا﴾ فهو كقولهم: "رجل بصير بكذا أي عالم بحقيقته وخبير بكنهه"، فالمعنى أن إيمان الوالد بحياتي مبنيٌّ فقط على ما أخبره الله بالوحي، فاذهبوا إليه بقميصي هذا ليتحول إيمانه إلى علم اليقين بواقع الأمر.

والآن يتقدم يوسف خطوة أخرى في الإحسان لإخوته، فيبشرهم بحسن معاملته لهم، ويدعوهم أن يأتوا بأهلهم أجمعين ليتمتعوا معًا بما وهب الله له من نعم وبركات.

وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٥﴾

شرح الكلمات:

فَصَلَت: فصَلَ من البلد فصولاً: خرج منه (الأقرب). الفصل: إبانة أحد الشيئين من الآخر حتى يكون بينهما فرجةٌ. وفَصَلَ القومُ عن مكان كذا: انفصلوا وفارقوه (المفردات).

تفنّدون: التفنيدُ: نسبة الإنسان إلى الفَنَد وهو ضَعف الرأي. قال الله تعالى ﴿لَوْلا أَن تُفَنِّدُونِ﴾ قيل: أن تلوموني (المفردات). فند الرجل فَنَدًا: خرَفَ وأنكر عقله لهرَمٍ أو مرضٍ. فند في القول والرأي: أخطأ؛ كذَب. وفنَّده: كذَّبه؛ جهّله؛ عجّزه؛ لامه؛ خطّأ رأيه وضعّفه (الأقرب).

التفسير: المراد من ريح يوسف هنا "خَبَرُه". فعندما يأمل المرء في تحقق أمر من الأمور في المستقبل القريب يقول: إنني أجد ريحه، وهذا ما يعنيه يعقوب عليه السلام. وبهذا المعنى قال سيدنا الإمام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام في بيت شعر له ما تعريبه: إنني لأجد الآن ريح يوسف، وإنني أنتظره وإن فنّدتموني. (الخزائن الروحانية ج٢١، البراهين الأحمدية ج٥ ص١٣١)

وليس المراد من قوله ﴿لَوْلا أَن تُفَنِّدُونِ﴾ أن لا تسمّوني مجنونًا، وإنما هذا أسلوب للتأكيد، والمراد لو لم تعتبروني مجنونًا فإنني أخبركم أنه قد حان اللقاء بيوسف. وهذا الأمر أسمى من أن تحيطه مداركُكُم وإن كان حقًا وصدقًا.

قَالُواْ تَاللّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٦﴾

التفسير: كم هو شاسعٌ البونُ بين من يتلقى الوحي الإلهي وبين من هو محروم منه. فإن اليقين الذي يتمتع به الأول بسبب إيمانه بوحي الله تعالى، لا يمكن أن يتيسر لغيره. ولذلك نجد أقارب يعقوب عليه السلام لا يصدقونه فيما أخبرهم به بناءً على الوحي، وإنما يعتبرونه مستحيلاً وضربًا من الخبل.

وأما قولهم ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ﴾ فاعلم أن الضلال يعني الانحراف عن الحق، وأيضا الاعتقاد بأمر من الأمور، وإن المعنى الثاني هو الذي ينطبق هنا فقط، لأن الذين خاطبوا يعقوبَ بهذا الكلام كانوا من المؤمنين وإن كانوا ضُعفَاء الإيمان، فالمراد: أنك لشدة حبك لابنك تفسّر الوحي تفسيرًا حرفيًا وإلا فمن المستحيل أن تلقاه مرةً أخرى.

فَلَمَّا أَن جَاء الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾

شرح الكلمات:

فارتدّ: ارتدّ على أثره: رجع. ارتدّ إلى حاله (الأقرب).

بصيرًا: بصُرَ به وبَصِرَ بصارةً وبَصَرًا: علِمَ به. رجل بصير بكذا: عالم به خبير (الأقرب).

التفسير: قوله تعالى ﴿فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾ لا يعني أنه كان قد عَمِيَ من قبل وعاد إليه البصر عندما وُضع القميص على وجهه. كلا، بل المراد أنه كان من قبل مؤمنًا بحياة يوسف، بناءً على الوحي، أما الآن فبرؤية القميص تحول إيمانه إلى اليقين والاطمئنان.

والحق أننا لو أمعنّا النظر في حقيقة الوحي لأدركنا أن علم الأنبياء عليهم السلام ينقسم إلى قسمين؛ علم باطني: وهو الذي يتلقونه بالوحي، وعلم مادي: وهو ما يحصّلونه بالحواس المادية. فعندما يتلقون خبرًا بالوحي يحصل لهم علم أساسه الإيمان، وليس الواقع، وحينما تصدق حواسهم هذا الوحي يحصل لهم علم أساسه الواقع، ويشترك فيه معهم غيرهم أيضًا. وقوله تعالى ﴿فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾ إشارة إلى هذا النوع من العلم، لأنه إذا تظافرت الحواس الباطنية والمادية معًا على تصديق أمر معلومٍ بالوحي يصبح العلم به كاملاً. إذا لم تؤكد الحواس المادية العلمَ الحاصل بالوحي يبقى هناك احتمال أن يكون الوحي بحاجة إلى التأويل بما يخالف ظاهر كلمات الوحي، أما إذا تحقق الخبر في الظاهر أصبح العلم كاملاً ولا يبقى للشبهة مجال.

بعد أن أُلقي القميص عليه قال: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾، وهذا يوضّح أن ما حدث لم يكن معجزة ليوسف وإنما ليعقوب، وإلا لو كانت عيونه قد شُفيت بإلقاء قميصه عليه -كما يزعم بعض المفسرين- لقال: انظروا إلى المعجزة العظيمة لابني حيث شفى

قميصه عيوني، ولكنه يقول: انظروا، لقد تحقق قولي بأن يوسف حيّ. فإنما المراد من الجملة -كما قلت من قبل- أنهم عندما وضعوا قميصه أمام يعقوب تحول علمه المبني على الوحي إلى علم يقينيّ واقعي. وكما هي سنة الأنبياء عليهم السلام فإن يعقوب لم يملك نفسه من فرط السرور والفرحة، فأخذ في حمد الله تعالى وتسبيحه بأن وحيه قد تحقق.

قَالُواْ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٨﴾

التفسير: إن تأثير الإثم يبقى في القلب ما لم يتم غفرانه، لذلك نجد إخوة يوسف لم يزالوا يقعون في تقصيرات تدل على نقصان طهارتهم الباطنية، ولكن نجدهم قد تغيروا تمامًا بعد أن غفر لهم يوسف قائلاً: ﴿لا تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾، وبعد أن شملهم الله بغفرانه عنهم، إذ لا يرون الآن الكفاية فيما قاموا به بأنفسهم من استغفار وتوبة، بل راحوا يلتمسون من أبيهم أيضًا أن يدعوَ ربه ليغفر لهم ذنوبهم، مع أن الإنسان العادي يكتفي في مثل هذا الموقف بالاعتذار إلى من أساء إليه فقط. ذلك أنهم حينما أخلصوا في توبتهم انكشفت عليهم الحقيقة أن سخط الإنسان أو عقابه لا يساوي شيئًا إزاء سخط الله وعقابه ﷻ، فقرروا أن يعقدوا الصلح مع الله تعالى قبل كل شيء، ويطلبوا منه العفو والغفران بواسطة نبيّه يعقوب. وهذا الطلب كان متضمنًا أيضًا العفوَ عنهم من قِبل أبيهم، لأنه إنما يستغفر لهم ربّه إذا كان قد عفا عنهم بنفسه.

قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٩﴾

التفسير: ثمةَ حكمة فريدة يجب أن نتذكرها. فأبوهم يقول لهم: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ﴾، والمعلوم أن (سَوْفَ) تفيد التأكيد ولكن في المستقبل البعيد، بينما نجد أخاهم يوسف قد أعلن العفو عنهم على الفور قائلاً:﴿لا تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾. لماذا؟ الحق أن القرآن قد قام هنا بتصوير الفطرة الإنسانية أصدق تصوير. ذلك أن يوسف عليه السلام كان يستعد منذ فترة للعفو عنهم لذلك عفا عنهم فورًا دون أن يقول لهم: (سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ)، وأما يعقوب عليه السلام فجاءه الخبر فجأةً، ولذلك ردّ على طلبهم قائلاً: حسنًا، ولكن هذا سيستغرق وقتًا، لأن حلول المحبة في القلب من جديد مكان السخط والألم أمرٌ لا يتم على الفور. فانتظروا حتى تهدأ عواطفي ويزول السخط من قلبي ليميل إلى الدعاء لكم. ودفعًا للقلق الذي قد يصيبهم بقوله (سَوْفَ) لم يلبث أن قال ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أي لا تُراعُوا، فإن الله سوف يزيل عن قلوبكم ما أصابها من صدأ الأخطاء ودرن الذنوب، وسوف يشملكم برحمته الواسعة.

هناك عادة عجيبة في بلادنا أن الناس يخطئون ثم عند الاعتذار يلحّون على من أخطئوا في حقه بقولهم: لن أبرح مكاني حتى تعفو عني، ويعنون بالعفو أن يخصهم صاحبهم بنفس المحبة والألطاف السابقة. ولكن هذا يتنافى مع الفطرة الإنسانية، لأن العفو نوعان: الأول: أن لا يُعاقَبَ الشخصُ المجرم، وهذا ممكن تحقيقه في اللحظة ذاتها، والثاني: أن يعود عليه بنفس المحبة والألطاف السابقة، وهذا ما لا يحدث على الفور، ولا يُكرَه عليه أحد قسرًا، وإنما يستغرق بعض الوقت.

فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء

اللَّهُ آمِنِينَ ﴿١٠٠﴾

التفسير: اعلم أن أم يوسف عليه السلام كانت قد توفيت عندئذٍ (التكوين٣٥: ١٩)، ومع ذلك نجد أن كلمة (أَبَوَيْهِ) قد تكررت هنا كثيرًا. لماذا؟ ذلك ليشير إلى ما كان يبدي يوسف من احترام وتبجيل عظيمين تجاه امرأة أبيه عليهما السلام. إن في ذلك لدرسًا عظيمًا للأولاد، هو أن زوجات آبائهم أيضًا بمثابة أمهاتهم، وأن الإسلام لا يفرّق بينهن فيما يتعلق بالاحترام وحسن المعاملة. فعليهم أن يكنّوا لهن على الدوام احترامًا وتقديرًا كما يفعلون مع أمهاتهم الحقيقيات.

ويبدو من قول يوسف ﴿ادْخُلُواْ مِصْرَ﴾ أنه جاء خارج البلد مستقبلاً أبويه. وإذا كان النبي أيضًا يبدي هذه الحفاوة والتكريم لأبويه ويخرج لاستقبالهما، فمعنى ذلك أن استقبال الضيوف ليس بجائز فحسب، بل هو أمر مستحب.

انظروا كم كان يوسف رفيع القدر في الروحانية. فنحن نجد إخوته الكبار لا يستثنون ولا يقولون (إِن شَاء اللّهُ) عند القيام بأي مهمة من المهام، وإنما كانوا يعزون كل عمل إلى أنفسهم، وعلى النقيض نجد يوسف الذي كان بمثابة رئيس الوزراء وعنده المراكب الجاهزة يقول ﴿ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللّهُ آمِنِينَ﴾ .. أي لا شك أن الأسباب متاحة ميسرة إلا أنه من الممكن تمامًا أن لا نستطيع دخول البلد إذا لم تكن هذه هي مشيئة الله تعالى.

الحق أن ترديد كلمة (إِن شَاء اللّهُ) بصدقٍ ويقينٍ قبل القيام بأي عمل يلعب دورًا كبيرًا في رقي الإنسان روحانيًا. ذلك أن الماضي من حياته يكون قد فاته وانفلت من يده، وأما الحال فهو قصير الأمد بحيث أنه بمثابة الحد الفاصل بين ماضيه ومستقبله، إذن فالمستقبل وحده هو الفترة الحقيقية التي يمكن أن يستغلها. فإذا قال الإنسان (إِن شَاء اللّهُ) بصدقٍ عندما ينوي القيام بعمل مستقبلاً فكأنه جعل الله تعالى يشاركه فيما يتوجه إليه من عمل، وبالتالي يحميه الله من تأثير الشيطان وشروره. ومن يفعل ذلك

بصدق ووعي فسوف يسعى لتحقيق مطلبه بكل ورع وتقوى.

ثم إن الذي يكون من عادته قول (إِن شَاء اللّهُ) بصدق وتدبر فيما يريد فعله فإنه يحمي نفسه من قصد الإثم، لأن هذه الكلمة لا تقال من أجل ارتكاب مَعصية. فكلما ينوي ارتكاب معصية سوف يشعر بالخجل والندم بسبب هذه العادة المباركة.

كما أن التعوُّد على قول (إِن شَاء اللّهُ) يساعد الإنسان على ذكر الله والتوكل عليه. وإن هذه هي الأمور التي تُعتبر لبَّ الروحانية وخلاصتها.

وقوله ﴿ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللّهُ آمِنِينَ﴾ دعاءٌ. ولربما كان قد علم بالوحي الأخطارَ التي كانت تنتظر آل يعقوب في مصر مستقبلاً، فابتهل إلى ربه أن يحميهم من تأثيرها المدمر.

المماثلة الثامنة عشرة: فكما أن يوسف عليه السلام دعا ربه قبل أن يدخل بهم البلدة، كذلك كان من سنة النبي ﷺ عند دخوله بلدًا ما أن يدعوَ بهذه الكلمات: "اللهم ربَّ السماوات السبع وما أظللن، ورب الأرضين السبع وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما ذرين، فإنا نسألك خيرَ هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرِّ هذه القرية وشرّ أهلها وشر ما فيها. اللهم بارِكْ لنا فيها وارزقنا جناها (أو جياها)، وأعِذْنا من وباها، وحبِّبنا إلى أهلها، وحبِّب صالحي أهلها إلينا."

ولقد جربت أنا ورفاقي وكذلك الصلحاء قبلنا أن من يدعو بهذا الدعاء قبل دخوله أي بلد يكون الله في عونه وينجيه من الآفات والمصائب.

وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ

السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاء إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١١﴾

شرح الكلمات:

رفَعَه رفعًا: ضدُّ وضعه. رفعَ زيدًا إلى الحاكم رفعًا ورُفعانًا: قدّمه إليه ليحاكمه. ورفعه إلى السلطان رُفعانًا: قرّبه (الأقرب). الرفع يقال تارةً في الأجسام الموضوعة إذا أَعْلَيتَها عن مقرها، وتارةً في المترلَة إذا شرَّفتها. وقولُه تعالى﴿وَإِلَى السَّمَاء كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ فإشارة إلى المعنيين: إلى إعلاء مكانه، وإلى ما خصَّ به من الفضيلة وشرف المترلة (المفردات).

العرشُ: سرير الملك (الأقرب). العرش في الأصل شيء مسقَّف. ومنه قيل: عرشتُ الكَرْم وعرَّشته: إذا جعلت له كهيئة سقفٍ. وسُمِّي مجلسُ السلطان عرشًا اعتبارًا بعلوّه، وكُنِّيَ به عن العز والسلطان والمملكة (المفردات).

خرَّوا: خرَّ: سقط سقوطًا يُسمَع منه خريرٌ، والخرير يقال لصوت الماء والريح وغير ذلك أيضًا مما يسقط من علوّ. وقوله تعالى:﴿وخروّا له سُجَّدًا﴾ فاستعمال الخَرّ تنبيهٌ على اجتماع أمرين: السقوطُ وحصولُ الصوت منهم بالتسبيح (المفردات). خرَّ الماء يخِرُّ خريرًا:صاتَ وكذلك الريحُ والقصبُ. وخرَّ العُقابُ: صاتَ خُفوقُ جَناحيْه. وخرَّ النائم: غطَّ. وخرَّ ساجدًا: انكبّ على الأرض. وخرَّ الحجر: صوَّت منحدرًا (الأقرب).

نزَغَ: نزَغَه نزْغًا: طعن فيه واغتابه وذكره بقبيح. ونزغَ بين القوم: أغرى وأفسد وحمل بعضهم على بعض، ويُقال نزغ الشيطان بينهم (الأقرب).

الشيطان: فيعالٌ من شَطَنَ. شَطَن عنه: أبعد؛ وشطَنت الدار: بعُدت (الأقرب). أو هو فَعلانٌ مِن: شاط الشيءُ: احترق. وشاط فلان: هلك. والشيطان: روحٌ شرير؛

كلُّ عاتٍ متمرِد؛ الحيةُ (الأقرب).

لطيف: لَطَفَ به وله لُطْفًا: رَفَقَ به. لطف الله للعبد وبالعبد: رفق به وأوصل إليه ما يحب برفقٍ؛ وَفَّقَه؛ عصمه، فهو لطيف. لطُف الشيء لُطفًا ولَطافةً: صغُر ودقَّ. واللطيف من الأسماء الحسنى معناه: البَرّ بعباده المحسنُ إلى خلقه بإيصال المنافع إليهم برفق ولطف؛ أو العالم بخفايا الأمور ودقائقها (الأقرب).

التفسير: قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ يمكن أن يفسَّر بمفهومين:

الأول: أن يكون من قولهم: رفعه إلى السلطان أي قرّبه إليه. فالمعنى: أنه قدّم أبويه إلى الملك المصري. والتوراة تصدّق هذا المعنى، إذ جاء فيها أنه عرضهما على الملك (التكوين٤٧: ٧).

والثاني: كانت العادة في القديم أن يكون لنائب الملك أيضًا عرش إلى جانب عرش الملك، فقد يكون هناك عرش خاص بيوسف، فأجلس عليه أبويه بإذن من الملك.

وقوله: ﴿وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا﴾. فاعلم أن كل المشتقات من (خرور) تتضمن معنى الصوت، ولذلك قال بعض المفسرين: يقال: خرّ ساجدًا عمّن يقع ساجدًا على الأرض وهو يكثر من ترديد كلمة (سبحان الله، سبحان الله). ولا يقال ذلك إذا قام بمجرد السجود (المفردات). فالمراد من قوله تعالى (خَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا) أنهم اندفعوا ساجدين على الأرض قائلين (سبحان الله، سبحان الله)، أو أنهم وقعوا ساجدين على الأرض بكل حماس بحيث سُمع لسجودهم صوت.

ولكن هذا لا يعني أنهم سجدوا للملك أو ليوسف، كما زعم البعض، بل المراد أنهم سجدوا لله تعالى شاكرين على ما حقق ليوسف من رقي وشرف. فكان يوسف سببًا لسجودهم ولم يكن مسجودًا له.

وأما قوله تعالى ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ﴾ فيكشف لنا سمو أخلاق الأنبياء عليهم السلام. الحق أن أهل يوسف جاءوه فارِّين من

معاناة القحط والمجاعة إلى مقام العز والراحة، ومع ذلك يقول يوسف إنه من فضل الله ورحمته عليّ أن جاءني بكم من البدو.

على المؤمن أن يضع هذه الأُسوة نصب عينيه دائمًا، فلا يتسبب في تجريح مشاعر الآخرين، بل يجب أن يخاطبهم بكلام مهذب ينم عن تقديرٍ واحترام لهم. فهذا الخُلق لا يساعد على ازدهار المدنية فحسب، بل يُكسب صاحبه أيضًا مرضاة الله تعالى. هنالك من الناس من لا يراعون الحيطة والحذر في حديثهم مع الناس ويسمّون عملهم هذا بساطةً منهم. ولكن هذا الأسلوب لم يكن من سنة الأنبياء، الذين كانوا يراعون في حديثهم احترام الآخرين دائمًا، وهذا هو الطريق الذي يجب أن يسلكه كل مؤمن. وقد روي عن النبي ﷺ أنه عندما أراد الحديث مع أحد اتجه إليه بوجهه، وإذا خاطبه أحد أصغى إلى كلامه إصغاءً تامًا (الشفاء ج١ ص٤٩). ولكننا نجد كبار القوم عندنا في هذه الأيام إذا تحدثوا مع أحد لا يتجهون إلى المخاطب بشكل مرضٍ بل يولون عنهم وجوههم، وحينما يحدثهم أحد لا يستمعون له ولا يلقون لحديثه بالاً. هذه كلها عادات تتعارض مع الإيمان، وعلى المؤمن اجتنابها كلية، وإلا رانت على قلبه وأصابته بالكِبر والغطرسة.

اعلم أن كل رغبة شريرة لا يُعرف مصدرها يعزوها القرآن إلى الشيطان، لأنها وليدة أفكار دقيقة. وإن كلمة الشيطان –بالنظر إلى مصدرها (شطن)– تعني كائنًا يثير الوساوس في القلوب وهو بعيد، وأحيانًا تطلق على تلك الروح الشريرة التي تحفز الإنسان على الشر إزاء ترغيب الملائكة له في الخير، وتطلق أحيانًا أخرى على الدوافع الخفية التي تتولد في قلب المرء نتيجة أعمال خاطئة سابقة، وهي التي تدفعه إلى ارتكاب المعصية في حين لا نرى أي سبب ظاهري لذلك.

﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾.. إذا وُصف الله تعالى بكونه (اللطيف) فمعناه العالِم بخفايا الأمور، أو المشفق على العباد، والنافع لهم بلطف ومحبة. وكأنه إذا تفقّد حالتهم فيتفقدهم عن محبة، وإذا هيأ لهم الوسائل والمرافق فأيضًا عن محبة، وإذا أحسن إليهم

فأيضًا عن حب ورفق، فكل أفعاله تتم عن محبته ولطفه بالعباد.

فكأنه سبحانه وتعالى رغم كونه غنيًا عن كل شيء يخفي عنهم غناه ليزدادوا حبًّا لله ﷻ.

وأشار بقوله تعالى (لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاء) أنه يخص بلطفه ومحبته من شاء من العباد، وأن كل إنسان يحظى بفضل الله ولطفه وفق سعته ومقدرته. وجاء هنا بصفة الله (الْحَكِيمُ) دفعًا لاعتراض هو: أن الرؤيا التي رآها يوسف كانت تشير إلى رقيّه، ولكن ما حدث هو أنه اضطر للمرور بشتى الخطوب والمحن لفترة طويلة؟! إنّنا إذا أمعنّا النظر فيما حدث تَبَيَّن أن هذه الشدائد نفسها مهدّت الطريق لرقيه، كما تسببت في توبة إخوته وطهارتهم. فلم يكن ما فعله الله بيوسف خاليًا من الحكمة أبدًا. لو أن يوسف عليه السلام نال العز دون هذه المصائب ما تجلّت عظمة الوعد الإلهي بهذا الشكل، كما لم يتم تطهير قلوب إخوته. فكل ما حدث كان وراءه حكمة عظيمة.

رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾

شرح الكلمات:

فاطِر: فَطَرَ الأمر: اخترعه (الأقرب).

التفسير: هذه الآية تكشف لنا مدى حب الله وعشقه الذي تعمر به قلوب عباده الأخيار. فما أن نالت يوسفَ الفرحةُ والبهجة بلقاء الأقارب حتى اشتعلت في قلبه قبسة المحبة الإلهية، فنسي كل شيء حوله، وتغيبت الدنيا وما فيها عن أنظاره، وهو

يناجي ربه في لهفة قائلاً: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ...﴾ أي كل هذا يا رب عطاؤك ومن فضلك أنت.

هذا هو السجود الحقيقي الذي يحقق لصاحبه الرقي في الروحانية. إن السجود الظاهري سجود مؤقت عابر. وإنما السجود الحقيقي هو أن يركّز الإنسان أنظاره إلى الله دائمًا، سواء في الفرحة أو الترحة، ويصبو إليه قلبه لاهفًا هائمًا. أما بدون هذا فلن يحقق الإنسان أي رقي في الروحانية، ولن يدخل الجنة الدنيوية التي إذا لم يدخلها هنا فسوف يستحيل عليه الدخول في الجنة الأخروية.

لقد طعن القسيس ويري في القرآن الكريم بسبب قوله تعالى ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾، وقال: هذا البيان يعكس لنا ما يعلّم القرآن أتباعه من كبر وغطرسة. (تفسير ويري).

وأقول ليس الأمر كما زعم القسيس أبدًا، بل هو تعبير عن المحبة الإلهية التي يعلّمها القرآن، حيث يخبرنا أن يوسف كان يذكر ربّه عند كل صغيرة وكبيرة، ولا يقول القرآن -كما زعمت التوراة- وكأن يوسف كان قد نسيَ ربّه وأعرض عنه بعد أن أنعم عليه وحقق له بغيته.

وأما قوله ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾ فقد ظن البعض أن يوسف كان قد وصل إلى منصب ملك (تفسير البغوي). ولكن هذا خطأ، لأن المُلك هنا يعني: السلطة والاقتدار، وكان قد نال هذا بإذن من الملك المصري.

ويعني بقوله ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ أنك يا رب حققت أمام عيني ما أريتني من رؤيا وعَرّفتني على فحواها، أو معناه: لقد وهبتني علمَ تعبير الرؤى.

الحق أن شخصيات الأنبياء -عليهم السلام- تمثل دليلاً على وجود البارئ تعالى، وهذا ما يؤكده يوسف عليه السلام بقوله: ﴿فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾.. أي أن حياتي برهان ساطع على كونك، يا ربِّ فاطرَ السماوات والأرض. إذ بشّرتني بالرقي العظيم حينما كنت صغيرًا حقيرًا لا يأبه بي أحد. ثم أكرمتني بسلطة واقتدار على بلد كبير،

وكأنك يا رب قد خلقتَ من أجلي سماءً وأرضًا جديدتين، فثبت أنك أنت الذي فطر السماوات و الأرض.

وقوله ﴿أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ دعاءٌ أي يا رب انصُرْني في الدارين. وقد فصّل دعاءه هذا بقوله ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾.. أي اجعلْ عاقبة أمري عاقبة خير، وأدخِلْني في الآخرة في عداد الصالحين الذين يصلحون للرقي الروحاني. فقوله ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ تفسير للولاية الدنيوية، وقوله ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ تفسير للولاية الأخروية.

ولو قيل: ما الداعي لقوله ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ بعد قوله ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾، فإن الذي يموت مسلمًا لا بد أن يُبعث في الصالحين؟ فالجواب: لا شك أن كل مؤمن يسمّى مسلمًا -بحسب كل الشرائع- وإن كان إسلامه ضعيفًا في حقيقته، ومثل هذا الإنسان سوف يدخل الجنة ولو بعد عقوبة قليلة، ولكن يوسف لا يتمنى لنفسه مثل هذا الإسلام، وإنما يريد أن يرتحل من الدنيا على إسلام يُلْحقه على الفور بالصالحين في الآخرة .. أي يكون إسلامه كاملاً بحيث لا ينفك بعد الموت أيضا يصعد إلى الدرجات العليا. وهذا هو المقام الذي يجب على المؤمن أن يسعى لإحرازه.

ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾

شرح الكلمات:

أجمعوا: أجمع القوم على الأمر: اتفقوا عليه. (الأقرب)

التفسير: لقد بيّن الله هنا أننا لا نسرد قصة يوسف كحكاية مسلية، وإنما تحتوي على أنباء غيبية.. أي أنها أخبار عمّا سيحدث بالنبي ﷺ في حياته المقبلة. ولقد أثبتُّ

من قبل في تفسير العديد من الآيات كيف أنه وقعت في حياة النبي أحداثٌ مشابهة لما حدث بيوسف في حياة النبي عليهما السلام.

وأما قوله ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ فالحديث هنا ليس عن إخوة يوسف بل عن إخوة النبي الكريم، إذ الخطاب موجه هنا إليه ﷺ، والمراد: ما كنتَ، يا محمد، لتطلع على ما ينسجه إخوتك أي أهل مكة من مكائد ومؤامرات ضدك ليحقق الله بها المماثلة بينهم وبين إخوة يوسف، فلا شك أنها أخبار جاءتك من الله الذي هو عالم الغيب، وليست وليدة أفكار الإنسان.

وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾

التفسير: أي لا شك أنك تسعى جاهدًا لأن يؤمن بك قومك بسرعة، ولكن ليست هذه هي المشيئة الإلهية، وإنما يريد الله أولاً أن يسلكوا المسلك الذي سلكه إخوة يوسف فلا يؤمنوا بك إلا بعد أن تحقق رقيًا غير عادي فيأتوك صاغرين.

وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٥﴾

شرح الكلمات:

ذكرٌ: الذكرُ: التلفظُ بالشيء؛ وإحضارُه في الذهن بحيث لا يغيب عنها؛ الصيتُ، ومنه: "له ذكرٌ في الناس"؛ الثناءُ؛ الشرفُ.. وفي القرآن ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾؛ الصلاةُ لله تعالى والدعاء.. يقال: إذا حَزَبَه أمرٌ فَزِعَ إلى الذكر؛ الكتابُ فيه تفسير

الدين ووضع الملل. والذِكر من الرجال: القويُ الشجاعُ الأبيُّ؛ والذِكر من المطر: الوابلُ الشديد؛ والذكر من القول: الصلبُ المتين (الأقرب).

التفسير: لقد أخطأ إخوة يوسف حين ظنّوا أنَّ العزّ الذي وُعد به في رؤياه سيؤدي إلى ذلّهم، مع أن رقيه كان سببًا في رقيهم أيضًا، وهذا ما فعله العرب بالنبي ﷺ، وإلى ذلك يشير الله تعالى هنا إذ يقول لنبيه: إن قومك ساخطون مما وعدناك به من عز ورقي، ظانين أن هذا سيؤدي إلى هوانهم، رغم أنك لا تطالبهم بشيء لتحقيق رقيك حتى يظنوا أنك تريد السلطة على حساب ضعفهم وهوانهم. بل العكس، فإنك تقدّم لهم ما يضمن لهم الرقي والشرف لهم وللعالم أجمع. فلا مبرر إذن لأن يسخطوا عليك ويغضبوا.

المماثلة التاسعة عشرة: وهنا أيضًا نجد تشابهًا كبيرًا بين يوسف والنبي الكريم عليهما السلام. لقد أعز يوسف إخوته ولكن عن طريق الملك، وأما الرسول ﷺ فقد آتى إخوته مُلكًا عظيمًا مستقلاً، حيث أن اثنين من أحمائه أبا بكر وعمر -رضي الله عنهما- صارا بمثابة ملِكين لدولةٍ عظيمة. فتبارك الله أحسن الخالقين.

وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٦﴾

شرح الكلمات:

كَأَيِّنْ: كأيِّنْ وكأيٍّ: اسمٌ مركبٌ من كاف التشبيه وأيٍّ المنوَّنة، ولذلك جاز الوقفُ عليها بالنون، وفيها لغات أخرى وهي: كَيْئِنْ وكايِنْ وكأْيٍ وكاءٍ. وهي توافق (كَم) في خمسة أمور وهي: الإبهام والافتقار إلى التمييز والبناءُ ولزومُ التصدير

وإفادةُ التكثيرِ تارةً وهو الغالب نحو: كأيٍّ من رجل، والاستفهامِ أخرى وهو نادر كقول أُبيّ ابن أُبيّ بن كعب لابن مسعود: كأينْ تقرأ سورة الأحزاب، وقال: ثلاث وسبعين. وتُخالفها أي أن كلمة "كأيِّن" تخالف كلمة "كَمْ" في خمسة أمور، الأول: أنها مركبة، والثاني: أن مميزها مجرور بمَن، والثالث: أنها لا تقع استفهاميةً عند الجمهور، والرابع: أنها لا تقع مجرورة، والخامس: أن خبرها لا يقع مفردًا (الأقرب).

التفسير: يقول الله تعالى: هناك آيات كثيرة في السماوات والأرض، ولكنهم يمرون عنها معرضين ولا ينتفعون بها.

هذا هو الفرق بين الكافر والمؤمن. فبينما يعيش المؤمن حذرًا مستيقظًا ساعيًا لفهم كل إشارة من عند الله وللعمل بها، نجد الكافر -كالأعمى- محرومًا من رؤية أية آية مهما كانت عظيمة. مع أن الحقيقة المعروضة أمام الاثنين واحدة، وقدراتهما أيضًا متساوية. نعم، تنفتح عيون الكفار عند حلول العذاب شيئًا فشيئًا، ويشرعون في رؤية نور الله تعالى.

الواقع أن أنبياء الله تعالى يمثّلون اختبارًا للدنيا، إذ تتجلى عند بعثتهم ما تنطوي عليه النفوس البشرية من ملكات وسرائر، وبقدر ما يكون الإنسان بطيئًا أو سريعًا في الإيمان بقدر ما تكون مترلته الروحانية منخفضة أو عالية.

ما أروعه من مشهد. فنجد المؤمنين يرون في كل ذرة من الكون آيات الله، وإن تفاوتت قدرتهم على الرؤية، فمنهم من يراها بالملايين ومنهم من يراها بالآلاف وبعضهم بالمئات وآخرون بالعشرات، ولكنا نجد على النقيض من ذلك فريقًا آخر لا يزال يثير ضجة بأن الله لم يُرنا حتى ولا آية واحدة، فكيف نؤمن بدون رؤية الآيات؟

وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٧﴾

التفسير: أي أن أعداء الحق هؤلاء يفسرون كل فعل تفسيرًا خاطئًا دون النظر إلى

الباعث الحقيقي. فمثلاً إذا مات منهم أحد ميتة غير عادية أرجعوا موته إلى مرض، أو حادث دون أن يروا أنه لم يمت هذه الميتة المخزية إلا لمخالفته للنبي ﷺ. أَو إذا رأوا أحدًا من المسلمين قد ارتقى وازدهر ينسبون رقيه إلى ذكائه ودهائه. ولا يرى هؤلاء الحمقى أن رقي هذا المؤمن إنما يرجع إلى إتباعه الصادق للنبي ﷺ، إذ كان عائشًا بينهم قبل إيمانه بالرسول، ولكنه لم يحقق هذا الرقي عندئذٍ. لماذا؟

فالآية توضح لنا سبب عَمى الكفار إذ تبين أن البصارة الروحانية لا يمكن أن تتقوى وتشحذ بدون التوحيد الكامل. وحيث إن عقائد الناس عمومًا تكون مشوبة بشوائب الشرك لذلك لا يتمكنون من رؤية التجليات الإلهية ولا يستطيعون التمييز بين الحق والباطل. ذلك أن الشرك إنما ينشأ عند الناس بسبب تقصيرهم في معرفة الصفات الإلهية معرفةً صحيحة. والمشرك يضطر دائمًا لتغيير صورة الله الحقيقية لتوافق صور آلهته الباطلة. وهذا يترك تأثيرًا سلبيًا عميقًا في قلب المشرك، حيث تنمحي من ذاكرته الصورة الحقيقية لله تعالى، بمعنى أنه ينسى صفات الله الكاملة الحسنى، فلا يبقى قادرًا على رؤية وجه الله في تجلياته المختلفة في الكون. ولذلك نجد المشركين دائمًا يعزون الأفعال الإلهية إلى غير الله تعالى من صنم حقير أو إله وهمي أو سبب مادي. إنهم يتذكرون هذه الأشياء، ولكن لا يخطر ببالهم اسم الله ﷻ أبدًا.

وعلى سبيل المثال، كان الكفار كلما رأوا في زمن النبي ﷺ آثار هلاكهم أرجعوها إلى الأسباب المادية، ولم يفكروا أن هذا عقاب من الله، أو عندما رأوا ازدهار النبي وأصحابه بشكل غير عادي عزوه أيضا إلى الأسباب المادية، دون أن يفكروا أن الصحابة كانوا يعيشون في نفس البيئة ونفس الأسباب قبل دعوى النبي ﷺ، ولكن النتائج كانت مختلفة تمامًا.

أَفَأَمِنُواْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٨﴾

شرح الكلمات:

أَمِنوا: أَمِنَ: اطمأن. أمِنَ من الأسد ومنه: سلِمَ (الأقرب)

غاشيةٌ: غشِيَه الأمرُ: غطّاه. الغاشيةُ: مؤنث الغاشي؛ الغطاءُ؛ القيامةُ لأنها تغشى بأفزاعِها؛ نارُ جهنم؛ الداهيةُ، ومنه:﴿تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللّهِ﴾ أي نائبة تغشاه (الأقرب) فالغاشية هي مصيبة أو عذاب يحيط بالجميع، إذ لا يمكن أن يسمَّى العذاب غاشيًا إلا إذا غطّى القوم عامةً.

بَغْتَةً: البغتةُ: الفجأة، وهو إما حالٌ في تأويلِ باغتًا أو مصدرٌ في تأويل أبغَتَ بغتةً، والأول أصح (الأقرب)

لا يشعرون: شَعَرَ به: علِم به. وشعر لكذا: فطِن له. وشعر: أحس به (الأقرب).

التفسير: لقد صرّح هنا أن الكفار إنما يعتبرون العذاب فقط آيةً، ولذلك سوف يأتيهم العذاب حتمًا. ولكنه تعالى سوف يأخذهم أولاً -بحسب سنته في العذاب- بعذاب أدنى، ثم يحل بهم عذابًا يحسم القضية نهائيًا. وهذا ما تؤكده الأحداث في حياة النبي ﷺ إذ لحقت بالكفار هزائم عادية في بداية الأمر ثم في آخر المطاف سحقهم الله بالعذاب الحاسم عند فتح مكة، حيث دخلها جنود المسلمين فاتحين منتصرين، واضطر الكفار لوضع السلاح صاغرين مهانين.

واعلم أن الساعة في هذه الآية تعني ساعة فتح مكة، التي اكتملت فيها المماثلة العظيمة بين يوسف عليه السلام والنبي الكريم ﷺ.. حيث هزم الأعداءَ هزيمة حاسمة، ثم عفا عنهم دون أي عقاب، غاضًا النظر عن جرائمهم كلها، كما فعل يوسف.

قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٩﴾

شرح الكلمات:

بصيرة: البصيرة: العقلُ؛ الفطنةُ؛ ما يُستدل به؛ الحجةُ؛ العبرةُ يُعتبر بها؛ الشاهدُ ومنه ﴿عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ أي عليها شاهدٌ بعملها (الأقرب). قوله تعالى ﴿أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ أي على معرفة وتحقق (المفردات).

التفسير: لقد أشار بقوله ﴿هَذِهِ سَبِيلِي﴾ إلى نفس الأمور المذكورة آنفًا.. أي الإيمان بالله والانتفاع من آياته واجتناب الشرك، ثم أوجز كل هذه الأمور بقوله: ﴿أَدْعُو إِلَى اللّهِ﴾.

كما أن قوله ﴿أَدْعُو إِلَى اللّهِ﴾ تكملة لنفس الموضوع المشار إليه في قوله تعالى ﴿مَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ (الآية: ١٠٥) إذ بيّن أنني بدلاً من أن أسألكم من أجر أودّ أن أشرككم فيما منّ الله عليّ من نعم وأفضال.

إن البون لشاسع جدًا بين أولياء الله الصادقين وبين من يدّعون بالولاية كذبًا، حيث يزعم الفريق الآخر كذبًا أن عندهم أذكارًا بل وعندهم الاسم الأعظم وأنها أسرار خاصة بهم لا يستطيعون إفشاءها، وعلى النقيض نجد الرسول الكريم ﷺ يعلن على الملأ: لقد تمكنت من الوصال بربي وأريد أن تصلوا إليه أنتم أيضًا. وهذا هو الغرض الوحيد من ندائي إليكم.

ثم يأمره الله تعالى أن يقول ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ أي لا أريد إسداء هذه الخدمة لكم فحسب، وإنما أسعى أن أكشف لكم الحقيقة بالأدلة والبراهين. أَوَليس غريبًا أن نجد بعض المسلمين يدعون إلى الإكراه في الدين بالرغم من وجود هذه التعاليم القرآنية الصريحة، هكذا يشوّهون سمعة الإسلام أمام أعدائه.

إن هذه الآية تؤكد أنه لا يتبع سنة المصطفى ﷺ إلا من يتبعها على ضوء العقل والبرهان. أما الذي يدخل في الإسلام ويؤمن بوحدانية الله وملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشره والبعث بعد الموت.. إيمانا تقليديًا دونما فهم ولا برهان، فلا يمكن أن يسمى متبعًا حقيقيًا للمصطفى ﷺ، لأن مجرد الإقرار باللسان بصدق القرآن دون أي دراية بالبراهين الدالة على صدقه وصدق تعاليمه.. لا يجعل صاحبه متبعًا صادقًا للرسول ﷺ، لأنَّ أتباعه الحقيقيين يمتازون بالفراسة والبصيرة. أما هذا فهو أعمى، والفرق الوحيد بينه وبين غير المسلمين أن هؤلاء يتبعون الكتب الأخرى إتباعًا تقليديًا أعمى، وأما هذا فإنه يصدق القرآن تصديقًا أعمى خاليًا من أي تدبُّر وبصيرة.

إذن فهذه الآية تلقي على عواتق المسلمين مسئولية جسيمة، إذ عليهم أن يعلّموا أجيالهم الأدلة على صدق الإسلام، وليست أدلة عقلية فحسب، بل البراهين التي تجمع بين العقل والعيان أي الخبرة الشخصية، وإذا لم يفعلوا ذلك فلن يكونوا أتباعا صادقين للرسول الكريم ﷺ، ولن يكون مثلهم إلا كمثل الذين يجنّدون جنودًا كأنهم جُثثٌ بدون رءوس.

من المؤسف أن مسلمي اليوم مصابون بهذه النقائص أيضًا، ولذلك نجدهم مُنحَنِي الرءوس أمام الكفار، إذ فقد كلامهم التأثير كليةً، وأخذوا يرتَدُّون عن الإسلام من رعب الآخرين، بدلاً من أن ينشروه في الأمم الأخرى بكل اعتزاز وفخار. فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وبيّن في قوله ﴿وَسُبْحَانَ اللّهِ﴾ أنه لا حاجة لله بأن يُكره الناس على الإسلام إذ لا جدوى من إيمان يأتي عن إكراه. وإنما يلجأ إلى الإكراه من يبغي المنزلة والعزة في إتباع الناس له، ولكن الله تعالى بريء من مثل هذه العيوب، ولن يضر الله شيئًا إذا لم يؤمن به الناس. والواقع إنما يلجأ إلى استخدام العنف والقوة من لا يقدر على إقناع الناس بالدليل، وهذه أيضًا منقصة، والله بريء من كل نقص.

ووضّح بقوله ﴿وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أن المسئولية التي وُضعت على عاتقي ثقيلة

جدا دون ريب، ولكني بريءٌ من الشرك كل البراءة، فلا أراها ثقيلة، بل أتكل على الله كليةً ولا أكثرت بأي شيء سواه أبدًا في نجاحي في القيام بهذه المهمة الصعبة.

كما أشار بقوله هذا إلى أنه كلما خلا إيمان القوم من عنصر البصيرة والوعي وقعوا في الأعمال الوثنية حتمًا.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلا رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَواْ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿١١٠﴾

التفسير: هذه الآية دليل على أن الله لا يبعث الرسل إلا من الرجال دون النساء. إن الله تعالى قد جعل لكل جنس مجالات معينة خاصة به، وأن منصب النبوة لا يقع داخل نطاق أعمال المرأة بسبب بِنْيتها فلذلك لا يفّوِضه إلا إلى الرجال، أما النعم والمناصب الأخرى فليست خارجة عن نطاق عمل النساء، ولذا فهن شريكات مع الرجال في هذه النعم والأفضال. فالمرأة يمكن أن تحظى بكل نعمة من نعم الله تعالى، كأن تكون صدّيقة أو ولية أو قانتة لله تعالى. وبالفعل قد بلغت الكثيرات هذه الدرجاتِ العلا من قرب الله تعالى، ما عدا نعمة النبوة الخاصة بالرجال.

والمراد من الآية أن قولهم: كيف يمكن أن يبعث محمد رسولاً إلينا وهو بشر مثلنا ليس إلا وسوسة وخدعة إذ لم يزل الله يرسل البشر الرجال لهداية الدنيا، فيجب أن لا يهلكوا أنفسهم مغترين بهذه الوسوسة، وإلا فسوف يلقون نفس المصير الذي لقيه أعداء أنبياء الله ﷻ الذين خلوا من قبل.

وأما قوله تعالى ﴿وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَواْ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ فحذّر به الكفارَ أن

لا يُخدعوا بما عندهم من عز ومنعة، وإنما عليهم أن يتدبروا ويدركوا أن الأمة التي تعمل بحق وعدلٍ وخشيةٍ من الله تعالى هي التي تخرج منتصرة في آخر المطاف. وهذه القاعدة واضحة بديهية لدرجة أن المرء يستغرب كيف يمكن أن ينساها الناس. قد يَخدعُ الظالمون أهل الدنيا، ولكن لا يمكن أن يستمر خداعهم لزمن طويل، بل إن القوم يستطيعون التمييز بين الخير والشر، لذلك يبدءون في نهاية المطاف في تأييد الفريق الذي يعمل لصالح الإنسانية ولا يريد لنفسه علوًا في الأرض، وإنما يفعل ذلك خوفًا من الله تعالى، وعندئذٍ تنكشف على العالم حقيقة الفريق الظالم.

كما أن كلمة (خَيْرٌ) ومعناها أفضل، تشير إلى أن المتقي أفضل من غيره في حالته الراهنة الضعيفة أيضًا، وإن كانت فضيلته خفية على أعين الناس. ذلك أن العمل ابتغاءً لوجه الله فقط، دون أية مصلحة أخرى، يُكسب المؤمنَ قوةً تشحنه ببشاشة وسكينة رغم ضعفه الظاهري. أمّا الحرمان من قرب الله تعالى والجشع وإيثار المصلحة الشخصية على مرضاة الله فكلها لا تولد في صاحبها الطمأنينة ولا تجلب له الراحة الحقيقية. فالحالة البدائية للمؤمن خير وأفضل ولا شك، أما عاقبة أمره فتكون خيرًا بشكل خارق للعادة بحيث لا يسع العدو إنكاره.

حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾

شرح الكلمات:

كُذِبوا: كذَبهُ الحديثَ: إذا نقل الكذب وقال خلاف الواقع. كُذِب الرجل: أُخبِر بالكذب. كذَبته نفسه: إذا منَّتْه الأماني وخيَّلتْ إليه من الآمال ما لا يكاد يكون.

كَذَبَتكَ عينُكَ: أَرَتْكَ ما لا حقيقة له (الأقرب). قال الأنباريُّ: الكذب ينقسم إلى خمسة أقسام... والثاني: أن يقول قولاً يُشبه الكذب ولا يقصد به إلا الحقَّ... والرابع: كذَبَ الرجلُ: بطَلَ عليه أملُه وما رجاه (التاج)

بأسًا: البأس: العذابُ؛ الشدةُ في الحربِ؛ القوةُ ومنه ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ أي قوة؛ الخوفُ (الأقرب)

التفسير: هذه الآية تعتبر من أشد الآيات القرآنية صعوبةً من حيث المعنى، لأن ظاهرها يعني أن الرسل ظنوا أن ما وُعدوا به من غلبة وانتصار كان كذبًا وخداعًا، وهذا باطلٌ ومناف لمقام الرسالة، لأن الله قد أعلن في هذه السورة نفسها: ﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إلا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾، فلا يمكن إذًا القولُ بأن أنبياء الله يئسوا – والعياذ بالله– من رحمة الله، أو أنهم ظنوا بأن الله وَعَدَهم وعودًا كاذبة، لأن الأنبياء – وهم يُبعثون معلمين وأسوة– لو أساءوا الظن بالله تعالى فكيف يتيسر للآخرين اليقين الذي يحمي من كل شك ووسوسة.

والحق أن المفسرين قد واجهوا المشكلة في فهم هذه الآية لقلة تدبرهم فيها، وإلا فإنها لا تقصد ما ذهب إليه البعض وإنما معناها كما يلي:

١) الواقع أن هذه الآية تتحدث –مثل التي قبلها– عن الفريقين: الأنبياء ومعارضيهم، وقوله تعالى ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ﴾ متعلق بالأنبياء، وقوله ﴿وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ﴾ متعلق بالكفار، والمعنى أن الكفار عندما ازدادوا شرًا وفسادًا قال الأنبياء في أنفسهم: إنه لن يؤمن من القوم إلا من قد آمن، ويئسوا من إيمان الباقين، وليس أنهم يئسوا من فضل الله ونصرته. وأما الكفار الخائفون من هلاكهم وفق أنباء الرسل عندما رأوا تأخُّر العذاب اطمأنوا ظانين أنه لن يصيبهم الآن أي عذاب، وأن الرسل كاذبون فيما حذّروهم منه. فَبَينا هُم في هذه الظنون إذ جاء نصر الله الذي مهّد لانتصار الرسل ولهلاك الأعداء. وهذه حقيقة ثابتة ما زالت تظهر في زمن كل نبي. فكلما تأخر تحقق النبأ عن العذاب الحاسم واطمأن الكافرون فيما يبدو جاء نصر

الله تعالى بغتةً لينتصر الأنبياء على الأعداء.

٢) أو أن نعتبر الضمير في ﴿كُذِبُواْ﴾ راجعًا إلى الأنبياء، والفاعل هو نفوسهم، وذلك كقولهم: كذبته نفسه: إذا منّته الأماني وخيّلتْ إليه من الآمال ما لا يكاد يكون. والمعنى أن الأنبياء لما رأوا الكفار على الشر وتأخر نصر الله تعالى، ظنوا أن نفوسهم ربما أمّلتهم فيما ليس مقصودًا من الوحي الإلهي، وأن وعد النصر الإلهي لن يتحقق من خلال هلاك الأعداء وإنما بطريق آخر.

وهذا المعنى أيضًا لا يتنافى مع مقام الأنبياء -عليهم السلام- إذ من الممكن أن يقع النبي في خطأ اجتهادي في فهم المراد الحقيقي من وحي الله تعالى.

٣) أو نرجع الضمير في ﴿كُذِبُواْ﴾ إلى الرسل والفاعل هو الكفار، والمراد أنه لما استمر الكفار سادرين في غيهم وشرورهم لزمن طويل يئس الأنبياء من إيمان بقية الكفار ظانين أنهم كانوا يأملون في إيمانهم عبثًا، فها قد خيّبوا أملهم بالإصرار على الفساد. وبناء على هذا المعنى يكون قوله تعالى ﴿وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ﴾ شرحًا لقوله ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ﴾. وهذا أيضًا يحدث مع الأنبياء في كثير من الأحيان حيث يبدي الكفار بعد سماع أنباء العذاب ردودَ فعل توهم وكأنهم سيؤمنون عن قريب، ولكنهم لا يلبثون أن يعودوا إلى سيرتهم الأولى ويُعرضوا عن الحق عقابًا من الله على سوء أعمالهم، أو عنادًا منهم وغطرسةً.

٤) أو أن يكون الله هو الفاعل في ﴿كُذِبُوا﴾، ويكون الرسل هم نائب الفاعل، وأن نأخذ الكذب بمعنى الصدق الذي يبدو وكأنه كذب، وهذا المعنى للكذب ثابت من اللغة كما ذكرنا آنفًا في شرح الكلمات، والمراد من الآية أن الرسل لما يئسوا من إيمان الكفار ظنوا أن النبأ الإلهي عن إيمانهم كان بحاجة إلى تأويل، ولكن ظننّا أنه يعني إيمانهم، وكان هذا خطأً اجتهاديًا منا، إذ لا نرى أي آثار لتحققه حرفيًا، يبدو أن الله يقصد به غير ما فهمنا منه. وبينما هم في هذه الأفكار والظنون إذ فاجأهم نصر الله، وانقلب الوضع تمامًا وكانوا هم الغالبين.

لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

شرح الكلمات:

قَصَصِهم: قصَّ عليه الخبر والرؤيا قَصَصًا: حدّث بهما على وجههما، ومنه ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾. (الأقرب).

الألباب: اللب: خالصُ كل شيء؛ العقلُ؛ أو الخالصُ من الشوائب؛ أو ما زكى من العقل، فكلُّ لب عقلٌ ولا عكس؛ القلبُ (الأقرب).

فالمراد من ﴿أُوْلِي الأَلْبَابِ﴾: العقلاء الذين لا تشوب طبائعهم شوائب العناد والتعصب، وإنما يدركون الحقيقة على الفور.

التفسير: يقول الله تعالى: لو أن هؤلاء تدبروا قليلاً في كلام أنبياء الله الأولين، لأدركوا أن ما يقوله محمد ﷺ سيتحقق لا محالة، لأنه بُعث وفقَ الأنباء الواردة في كتب الأولين، وأنهم لو كذّبوه فقد كذّبوا الأسفار السماوية السابقة. فمثلاً هناك أنباء في التوراة وغيرها عن بعث النبي ﷺ، ولو لم يصدقوه للَزم عليهم تكذيب التوراة، إذ لا نجد أحد انطبقت عليه تلك الأنباء.

أما لو قال أحد: إن الذي هو مصداق لتلك الأنباء لم يظهر بعد، بل إنه سوف يُبعث لاحقًا، فالجواب: ما دامت العلامات المذكورة في تلك الأنباء قد تحققت مرة في النبي ﷺ، فليس هناك أي أمل في تحققها في شخص آخر مرة أخرى. ولو سلّمنا جدلاً بظهور أحد في المستقبل طِبقًا لهذه الأنباء لصارت باطلة وموضع شبهة وشك، إذ لا قيمة لعلامات وأنباء تنطبق على الكاذب أيضًا. ثم كيف نجزم بصدق هذا الذي يأتي فيما بعد، وإن انطبقت هذه الأنباء عليه فربما يكون كاذبًا كالكاذب الأول.

والدليل الثاني الذي ساقه القرآن هنا على صدقه هو قوله ﴿وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ﴾.. أي أن الكتاب النازل على محمد ﷺ يسد كل ما يحتاجه الإنسان في مجال الدين، وما دام القرآن محتويًا على كل ما لا بُدّ منه للإنسان فما الداعي لنزول أي كتاب آخر!

إن هذا الدليل يدحض أيضًا ادعاء الذين زعموا بالإتيان بشرع جديد بعد القرآن كمثل "البهاء" الذي ادعى بأنه جاء بشرع جديد (الأقدس،ص٢٣٣). فيمكن أن نوجه إليه السؤال: ما هي الضرورة الدينية التي لم يلبِّها القرآن حتى مسّت الحاجة إلى شرعك الجديد؟ فالحق أن هذا البرهان قوي جدًّا بحيث لا يستطيع مواجهته أحد من أتباع "البهاء" أو غيرهم، لأن القرآن قد بلغ من الكمال والشمولية بحيث لا يمكن أن يباريه أي كتاب قديم أو جديد، لا في عدد المسائل المذكورة فيه ولا في تَنَوُّعها، ناهيك من أن يبلغ شأوه فيما جاء به من معارف سامية للغاية.

ثم وصف القرآن بكونه ﴿هُدًى﴾.. أي أن ما جاء به النبي ﷺ لا يكتفي بتفصيل الأمور الدينية، بل أيضًا يوصل الإنسان إلى ربه ﷻ ويأخذه مُرورًا بالمرحلة الأولى العقلية إلى مقام العيان والمشاهدة أي الخبرة الذاتية مع الله تعالى.

وآخر ما ذُكر من مزايا هذا الكتاب هو أن العامِلين به لا يدّعون بلسانهم فقط بأنهم من أهل الله تعالى، بل بالفعل يصبح لهم هذا الكتاب رحمةً، حيث يؤدي العمل به إلى نزول الأنوار الإلهية عليهم، فيترل لهم التأييد الإلهي في كل مجال من حياتهم بحيث يدرك الرائي أنهم يعيشون في كنف الله تعالى وأنهم يحظَون بقربه حقًا.